الإنشاء الفلسفي

حلمي

مواضيع علم النفس

تأليف

ألبير سوور

تعريب

جمال المحاسني

المكتبة الهاشمية لصاحبها محمد هاشم الكتبي وشركاه بدمشق

١٩٤٣

نصائح عامة

في كيفية ممارسة إنشاء فلسفي

١ — في الموضوع

كثيراً ما يحدث أن الطالب يقرأ نص الموضوع قراءة سريعة ويظن أنه قد فهم الموضوع فيسلك طريقة خاطئة . مع أنه ينبغي أن يقرأ النص قراءة واعية ويفهم معاني الألفاظ فهماً حسناً ليصل في النهاية إلى رؤية المسألة رؤية واضحة . وليس هذا من السهل اليسير دائماً كما يعتقد لأن بعض الكلمات ذات معان عديدة [1] وبعضها ذات معان واسعة وضيقة [2]. فالقراءة الواعية للنص هي التي تعيننا على تمييز المعنى الواجب قبوله .

مثال: اشرح فكرة لارشفوكولد القائلة « كلنا يشكو ذاكرته ولا يشكو أحد حكمه » فكلمة (حكم) مدعاة للالتباس ، ولكن المعنى العام لهذا القول يرينا بعد التأمل فيه أن كلمة حكم لا تدل هنا على معناها الضيق الذي هو عبارة عن « اثبات علاقة بين حدين »

---

(١) يأتي المؤلف الفرنسي بمثالين في اللغة الفرنسية هما كلمتا réalisme , idéalisme اللتان لكل منهما معان عديده . ونأتي نحن بمثال آخر في اللغة العربية هو كلمة « تجريبي » . فهذه الكلمة تارة تدل على معنى empirique وتارة على empiriste وتارة على expérientiel وتارة على expérimental. وهناك أمثلة أخرى . (المترجم)

(٢) يأتي المؤلف بمثالين في اللغة الفرنسية هما كلمتا jugement , instinct اللتان لكل منهما معنى واسع ومعنى ضيق . وكذلك الامر في اللغة العربية في كلمتي غريزة وحكم . (المترجم) .

٢ — في التحضير

يظن أكثر الطلاب أن تحضير الموضوع إنما هو إعادة بحث من البحوث تحت عنوان المسألة المطلوب حلها، مع أن هذا التحضير الخاص قد يؤدي إلى الزلل أيام الفحص. وإن كنا لا نستطيع منعه أثناء دروس السنة، فإننا نستطيع القول بأنه لا يخلو من مخاطر. فالطالب يميل بطبعه إلى تقليد الأمثلة الموضوعة أمامه تقليداً لاشعورياً. لهذا نلح في ضرورة «التحضير العام». ومعناه أن الطالب يكون مستعداً لمعالجة أي موضوع كان إذا هضم دروس كتابه أولاً ثم طالع مطالعات بصيرة أثناء سنته الفلسفية ثم إذا تمرن خاصة على التفكير الشخصي في المسائل التي نوقشت في صفه.

وإجمالاً، ليس الطالب مدعواً إلى تقبل فلسفة بكاملها. بل ينبغي أن يتعلم كيف يفكر على منوال كبار المفكرين وكيف يحاول أن يتخذ له رأياً. وقد يشعر الفاحص بنوع من الاعتراف يبدو في إعطائه العلامة، إذا لمس، وهو يقرأ ورقة الفحص، تفكيراً شخصياً عند الطالب وجهوداً في التفكير [1] ولو بصورة غير تامة.

---

(١) من الواجب أن تقيد هذه الملاحظة بانتباهين: ١) لا فائدة من تفكير شخصي لا يستند الى التجربة والحياة والبراهين الواقعية. ٢) ليس معنى محاولة التفكير الشخصي أن يأتي الطالب بما هب ودب من أفكاره وخواطره الخاصة، بل عليه أن يلقي نظرة عامة على تاريخ الفلسفة، كلما دعت المناسبة الى ذلك، فيتابع تطور المسألة التي يعالجها منذ أقدم عصورها حتى الآن. وبمقدار ما تكون نظرته التاريخية أعمق تكون نتائج تفكيره أضبط (لما في ذلك من استقراء واسع وتجارب كثيرة). وهذا هو معنى «الثقافة الفلسفية» التي يلمسها الفاحصون في ورقة الطالب اذ يرونه يستشهد بأمثلة تاريخية من جهة ويعرض أفكاره بطريقة منظمة من جهة أخرى (المترجم).

٣ – التأمل وخطة البحث

التأمل في الموضوع معناه أن الطالب يثير في نفسه الفكرات المتعلقة بالبحث (على اعتبار أن التحضير العام قد تمّ عنده) . والطلاب عادة لا يضحون بوقت كاف لمثل هذا التأمل فلا تتوارد على أذهانهم الفكرات . مع أنهم لو يحصرون الذهن خلال مدة أطول ويهتمون في الأمر كذلك ، يأخذنّهم العجب من الخواطر المتنوعة التي يبعثها التفكير .

والتأمل يجب أن يقودنا إلى خطة واضحة طريقية نيّرة Plan net, méthodique, lumineux ولا ينبغي أن نقول كل ما نعرف[1] بل يجب الانحصار في حدود الشيء الأساسي وإقصاء الزوائد عنه واجتناب كل ما لا يمت إلى الموضوع بفائدة . وبكلمة موجزة « إن تحديد الموضوع تحديداً دقيقاً » هو المبدأ العام للإنشاء الحسن مع مراعاة التسلسل الطبيعي للأفكار وملاحظة ترابطها .

٤ – في الشرح

ثم يُنظر إلى تحقيق التوازن وتناسب أجزاء الموضوع . ولا يذهبنّ عن البال لزوم إثبات الأفكار بالأمثلة . ففي علم النفس والأخلاق تستعار الأمثلة من الحياة الواقعية وفي المنطق من العلوم .

٥ – في الأسلوب

ومن الصفات الرئيسية للأسلوب الفلسفي « الدقة » . فينبغي أن

---

(١) جدير بهذه الملاحظة أن تنال عنايتها لدى الطلاب في بلادنا . لأن الشائع عندهم أن يقولوا كل ما يعرفون بمناسبة وغير مناسبة (ولا سيما اذا كان أحدهم معجباً بفكرة من الفكرات قرأها حديثاً أو خطرت له من ابتكاره) . وهذه العادة متسربة أيضاً الى مجالسنا رسمية وغير رسمية فكثيراً ما يعرض القائل القول وليست غايته الا أن يقال عنه : قد تكلم وتكلم جيداً . (المترجم)

تزهد بالتشبيهات والخيالات وتجتنب تلك العجمة الفلسفية وضجة الألفاظ التي نرى أمثلتها مع الأسف في كثير من المؤلفات المنتشرة [1] .

٦ – نماذج المواضيع

يمكن إرجاع المواضيع التي تعالج فلسفياً إلى عدد من الأصناف نذكر منها مايلي :

١ – أسئلة نظرية Questions de cours

وهي التي تلعب في الطلاب أسوأ الادوار . لأنهم يستخدمون الذاكرة بدلاً من استخدامهم المحاكمة . وخير الوسائل لمعالجة هذه الأسئلة معالجة ابتكارية ، اللجوء إلى إغنائها بالأمثلة الشخصية ما أمكن .

٢ – مواضيع المناقشة

وفيها ينبغي الاهتمام بثلاثة أمور : امتلاك المذاهب الفلسفية وعرضها عرضاً محكماً . ثم إظهار « روح الحقيقة » التي تحتويها ، ثم بيان « الاعتراضات » التي تثيرها ، وذلك بطريقة منظمة ومنهج مرسوم .

٣ – مواضيع المقارنة والموازاة والعلاقات

إن كلمة « علاقات » واردة في أكثر البحوث . وعلى الطالب إيجادها سواء في المشابهات والفروق أو في تأثير ملكة وحادثة في أخرى أو في تبادل الفوائد .

---

(٢) لايزال يعتقد كثير في بلادنا أن الأدب انما هو في جزالة الألفاظ ورنة الكلمات ، ثم يوسعون تعريفهم فيرون في الفلسفة ضرباً من ضروب الأدب فاذا قبلنا أن الأدب في جزالة الألفاظ ورنة الكلمات فلا نستطيع الا القول بأن مثل هذا الأدب يفسد الفلسفة ، ولا تسلم الفلسفة الا باجتنابه .

(المترجم)

٤ً – تطبيقات على حالة خاصة

وهي مواضيع تطلب غالباً من الطلاب ليطبقوا بعض النظريات الفلسفية على حالة خاصة وهذه المواضيع تستدعي التفكير الشخصي أكثر من سواها .

٧ الفاتحة والخاتمة .

ومهما يكن نوع الموضوع فلا بدله من شيئين يظهر أنهما صعبا المأخذ . ألا وهما الفاتحة والخاتمة . ففي الأولى ينبغي الدخول في الموضوع رأساً وبكل بساطة . فلاحاجة إلى التكلف والتعقيد مادام الشيء الاساسي هو وضع المسألة بوضوح وطرد كل ماهو خارج عن دائرتها . أما الخاتمة فينبغي أن لاتكون خلاصة تحليلية عن المشروحات بل فكرة عامة وخلاصة تركيبية للنتائج التي توصَّل إليها التحليل .

مقدمة

في الفلسفة إجمالاً

١ — ماهي الفلسفة بنظرك وماقدتكون فائدتها (ديجون ٩٢٥) 1. Qu' est-ce, à vos yeux, que la philosophie, et quelle peut être son utilité ? Dijon 1925

متن (١)

١ — كانت الفلسفة في الأصل مجموعة المعارف البشرية وحصيلة العلوم. وقد قال أرسطو إن هذه المجموعة هي في الواقع « العلم في المبادئ الأولى أو الأسباب الأولى ». وقد قال في المعنى نفسه ديكارت « إن الفلسفة تشبه شجرة جذرها الميتافيزيقا وجذعها الفيزيقا وفروعها العلوم الأخرى المتفرعة عن هذا الجذع ». ثم قال أوغوست كونت إنها النظرية العامة والنظرة التركيبية للعلوم. وأخيراً عرّفها سنبسر « بأنها العلم الموحد تمام التوحيد ».

---

١ — يقصد بكلمة « متن » مايرادف كلمة plan الأجنبية. ومعناها في أصلها اللاتيني « ما كان من الشيء وحده ظاهرة مستوية planum وفي اللغة العربية « متن الشيء : ماظهر منه . ومتن الأرض : ماارتفع منها واستوى » — هذا وقد جعل مؤلف الكتاب مواضيع كتابه على نوعين: ١ — بحوث موجزة أي (متون plans) يكتفي فيها بعرض النقاط الأساسية الظاهرة. ٢ — شروح أي développements. (المترجم)

ملاحظة : يمكن معالجة الموضوع رقم ١ معالجة أقرب إلى الكمال من هذه. وقد ترك المؤلف هذا المجال إلى الطالب ليراجع الكتب النظرية. وما يقال عن الموضوع رقم ١ يجوز أن يقال عن كثير من المواضيع المقبلة. (المترجم).

٢ — والحقيقة أن للفلسفة موضوعاً خاصاً بها • فهي تستهدف من اكتساب حصيلة العلوم ، استنتاج المبادئ العملية العامة التي بواسطتها يتعلم الإنسان كيف يجب أن يعيش • ونقطة المسير حيث تبدأ الفلسفة هي علم النفس أي دراسة النفس البشرية ، أما الهدف فهو بيان شأن الانسان في الكون ومعنى الحياة البشرية ، الأمر الذي يسمى إجمالاً بالاخلاق.

٣ — وينتج مما سبق أن للفلسفة غرضاً مضاعفاً :

اً — غرضاً نظرياً : وهو إشباع حب الإطلاع في النفس البشرية وتلبية رغبتها في معرفة نفسها ومعرفة الكون •

٢ً - غرضاً عملياً : وهو توجيه الفاعلية البشرية بوضع الفرد في مكانه منسجماً مع المجتمع ومع الكون قال برغسون إذا كان العلم يكفل للإنسان وضعاً حسناً ولذة فإن الفلسفة بإمكانها إدخال الفرح إلى قلوبنا • (أنظر الموضوع رقم ٥) •

• • •

٢ - ماهي الخصائص العامة للفلسفة؟ كيف تعرّفها؟ (كلرمون ١٩٣٤)

• • •

٣ - هل للفلسفة موضوع خاص بها وطريقة ؟ (بزنسون ١٩٢٥)

• • •

٤ — فسر هذه الفكرة : « المعرفة التي من النوع الادنى هي المعرفة اللاموحدة • والعلم هو المعرفة الموحدة بعض التوحيد والفلسفة هي المعرفة الموحدة تمام التوحيد »

4. Expliquer eette pensée : « La connaissance de l'espèce la plus humble est le savoir non unifié; la science, le savoir partiellement unifié; la philosophie, le savoir totalement unifié » . (Clermont).

متن

١ - إن كلمة « معرفة » ملتبسة المعاني • وللمعرفة درجات يهمنا تحديدها بدقة • وهي ثلاث أساسية نميزها كما ميزها سبنسر • أولاً

المعرفة الدنيا أو العامية . ثم المعرفة البصيرة والمنتظمة أي العلم . ثم المعرفة العليا والتركيبية أي الفلسفة .

٢ – فالمعرفة التي من النوع الأدنى ، هي حالة من حالات الفكر سلبية على الأكثر . وهي لا بصيرة ولا يقينية . وتختلف من شخص لآخر وتتغير بتغير العادات والظروف وتتحول في الشخص الواحد نفسه تبعاً لأغراضه وأهوائه . وقد تكون صائبة أحياناً غير أنها بحاجة إلى آيات اليقين . أي ينقصها «البرهان الطرقي» وخصوصاً الترابط المحكم مع الحقائق الأخرى التي هي في الواقع (كلٌ منسجم) مرتبط لأجزاء مرصوص .

٣ – أما العلم فهو على العكس مجموعة من الحقائق المتعلقة بموضوع واحد والمرتبطة فيما بينها بطريقة واحدة . وكلمة « المعرفة » هنا كلمة ذات معنى دقيق وعميق . فهي تدل على إرجاع الكثرة إلى وحدة . فالرياضي مثلاً يرجع كثيراً من النظريات بواسطة البرهان إلى وحدة التعاريف والبديهيات ، والفيزيقي يرجع كثيراً من الحوادث إلى وحدة القانون وهكذا يكون المثل الأعلى للعلم إرجاع أكبر عدد من الحوادث إلى أصغر عدد من القوانين .

٤ – والفلسفة أخيراً هي المعرفة الموحدة تمام التوحيد . وإن كلمة « علم » كما يدل معناها لا توجد في الواقع لأن الذي يوجد هو «العلوم» والعالم ليس إلا رجلاً اختصاصياً . وقد شكا أوغست كونت مساوئ الاختصاص الذي يشتت الفكر ويضيق ساحته ويسبب صغره . لهذا تأتي الفلسفة وتوحد المساعي العلمية وتحثها على النهوض بإعلانها مدلولها ثم تهيئ لها أفكاراً توجيهية .

٥ – على أننا يجب أن نلاحظ

ا) أن العلم يميل بطبعه إلى إجراء تركيب العلوم بدون مساعدة

الفلسفة ، وذلك بتكثيف كثير من القوانين وعدد لانهائي من الحوادث تحت عنوان واحد يشملها في تفسيرها كلها شمولاً علوياً .

٢ً) أن الفلسفة لا تنحصر في كونها تركيباً للعلوم فقط . فهي ذات موضوع خاص بها ولا يتاح لعلم من العلوم معالجته . كما أن لها اتجاهاً في النظر يختلف عن اتجاه العلم .

٥ — هل صحيح أن المذاهب الفلسفية لا تجري تأثيرها الا في نفوس الخاصة من المفكرين ؟ (بواتيه) .

5. Est-il vrai que les systèmes philosophipues n'exercent pas d'influences que sur les esprits spéculatifs ? (Poitiers)

شرح

من الخطأ أن نظن أن المذاهب الفلسفية لاتؤثر إلا في نفوس الخاصة من المفكرين .

١ — بأي الوسائل تجري تأثيرها . فهي تنزل إلى مستوى الجماعات وتتسرب إلى أذهان العامة . وذلك إما عن طريق الكتب التي تفسرها بلغة سهلة وتصورها بصور محسوسة وإما عن طريق المجلات والصحف وإما بواسطة التربية والتعليم أو بواسطة المحادثات واحتكاك الافكار أو بتأثير الوسط الاجتماعي والجو الفكري الذي يحيا فيه الافراد .

وقد يبدو هذا التأثير في أيامنا الأخيرة أكثر وضوحاً منه في العصور السابقة ، قال « أوله لابرون » : لقد زال اعتبار الفكر ظاهرة من ظواهر الزينة موقوفة على الطبقة الخاصة المختارة » . فالناس اليوم يتكلمون ويكتبون ويقرؤون بكثرة ثم يعنون بالأفكار ثم يطرحون المسائل للمناقشة وأخيراً يسعون في توجيه الرأي العام .

ويرينا التاريخ أن المفاهيم الأكثر تجريداً والتي هي صنع الفلاسفة الأكثر تعمقاً (بل الأكثر انعزالاً أحياناً) قد تتسرب شيئاً فشيئاً إلى الوسط

الاجتماعي وتؤثر فيه وتغير وتبدل. وقد بين « تارد » أن الفكرة الجديدة التي تنبث في شعور المفكر العالي تنتشر في شعور باقي الناس عن طريق التقليد. والتقليد من أهم عوامل الحياة الاجتماعية « بحيث أن الكائن الاجتماعي هو مقلد في الذات ومثله الجماعات ». والتقليد إنما ينزل من الأعلى إلى الأدنى ومن الشخصية القوية إلى الشخصية الضعيفة ويشع دوماً ويتسع أشبه ما يكون بالحركة الموجية التي تتسع بالتدريج إلى مسافات عجيبة في ابتعادها.

٢ - أمثلة عن تأثيرات المذاهب الفلسفية. أليست أفكار الثورة وما نتج عنها من تبدلات سياسية واجتماعية، أليست إلا من صنيع فلاسفة القرن الثامن عشر؟ أما استطاع روسو أو تولستوي أو أوغوست كونت كل منهم أن يخلق من بعده جيلاً روحانياً؟ أليست أفكار كارل ماركس الحاوية على فلسفة مادية للتاريخ، أليست اليوم إلا من الأفكار المألوفة عند عدد كبير من الناس حتى قليلي الثقافة؟

٣ - المصلحة الحيوية والمذاهب الفلسفية. لنحضر مجلساً من المجالس العامة، إذا فعلنا ذلك نعجب كل العجب كيف يحل الناس بسهولة كثيراً من مسائل الفلسفة الاجتماعية الصعبة. وفي المحادثات الخاصة كلما أثيرت مسألة من المسائل الميتافيزيقية العالية كالمسؤولية والحرية والاله والآخرة فاسرعان ما تحتدم المناقشات ويظهر الحرص والاهتمام.

فليست المذاهب الفلسفية ذات منفعة محصورة خاصة. فهي تفيدنا في سلوكنا ومتعلقة بأعمالنا وتؤثر في حياتنا. والفلسفة إنما هي مفهوم عام للوجود بحيث أن لكل إنسان فلسفة معينة أو أنه يعتنق فلسفة معينة وهي التي توحي إلينا أفعالنا وهي التي تبررها وتعذرها ولو كانت لا تكتسي برداء الوحدة والانسجام كما هي عند كبار المفكرين. والنتيجة أن الأفكار الفلسفية توجه العالم.

٤ - نتائج عملية

هذه في النواحي يجد الفيلسوف مادة واسعة للتفكير . وهو يفرض على نفسه واجب فحص الافكار السائدة في عصره وبيئته لينتقدها ويقيس قيمتها ولا يتيح لنفسه أن يكون من أولئك المقلدين لذي يقبلون فلسفة كاملة دون فكير ولا تمحيص . ثم يقول في نفسه إن المفكر يزاول وظيفة إجتماعية فيشعر بمسؤوليته كرجل صب او رجل كاتب ، ثم يغرق في أعماق هذه الفكرة القائلة : ليست الفلسفة لهواً ولعباً عقلياً وليست مجرّد تمرين مدرسي بسيط .

٦ — الروح الفلسفية والروح العلمية . (كلرمون) .

6. L'esprit philosophique et l'sprit scientifique. (clermont).

متن

١ - المشابهات :

الفيلسوف كالعالم ، يريد أن يعرف ، يعلم ويبرهن ، وهو يحتاج إلى الصفات الفكرية الموجودة لدى العالم من روح إنتقادية وطرقية ، واعتناء بالبرهان ، ولاغرضية .

٢ - الفروق :

أ) العالم رجل اختصاصي : فهو يحصر مباحثه في نوع معين من المسائل . بينما الفكر الفلسفي يستهدف العمومية والشمول . (مثلاً : فلسفة العلوم ، ما وراء الطبيعة) .

٢ً) الفكر العلمي أكثر تحليلاً والفكر الفلسفي أكثر تركيباً .

٣ً) العلم معرفة تسلك طريقها خارجاً (وموضوعها objet) . والفلسفة معرفة تسلك طريقها داخلاً (وموضوعها sujet) . والنفس هي التي تعيننا على فهم جميع الحقائق الأخرى .

٣ - إتحادهما :

اً) على الفيلسوف أن يجهز نفسه بثقافة علمية ويكون واقفاً على تيار

الرقي العلمي والنتائج التي حققتها العلوم المختلفة أو توصلت إليها . فهي التي تمونه بالمواد الأولية اللازمة لبنائه .

٢) قال « دبوا ريمون » : إذا ابتعدت العلوم عن الروح الفلسفية ، فالنتيجة أنها تضيق ساحة الفكر . لهذا نرى أكثرية كبار العلماء متمتعين بروح فلسفية سامية أمثال كلود برنار ، وهنري بوانكار وسواهما

٧ — قال كلود برنار متكلماً عن العلاقات بين العلم والفلسفة : « ان اتحاد العلم والفلسفة اتحاداً مرصوصاً يفيد كليهما : يرفع العلم ويسند الفلسفة » . فسر هذه الفكرة وقومها . (مونبيليه) .

7. Cl.Bernard adit en parlant des rapports de lascience et laphilosophie «L'union solide de lascience et de la philosophie est util aux deux : elle élève l'une et sontient l'autre». Expliquer et apprécier cette pensée. (Monpellier).

متن

١ - الفلسفة « ترفع » العلم . وبدونها يبقى العلم في مستوى أرضي . ولا شك أنه لايسقط كل السقوط في التجربة العفوية ولكنه يظل في تماس معها وبذلك يحرم نفسه من التمتع بالفرضيات الكبرى والنظرات الشاملة . وكأنه (كما يقال بالفرنسية) يحتذي نعالاً من رصاص .

٢ — العلم «يسند» الفلسفة . وبدونه يُخشى على الفلسفة من أخطار وقوعها في التجريدات أو اتخاذها بعض الافكار كحقائق ثابتة وصيرورتها فارغة لفظية .

٣ — من أمثلة العلماء الذين لايتحلون بالروح الفلسفية : ماجندي

ومن أمثلة الفلاسفة الذين لايتحلون بالروح العلمية : المدرسة الصوفية للاسكندرية ، المثاليون الألمان : فخته ، شلنج ، هجل (تركيبات منطقية محضة) . كوزن (محاولات بروح خطابية وميل إلى الشدو الأخلاقي) .

٤ — من أمثلة اتحاد الروحين : ديكارت ، ليبنتز ، نيوتن ، كلود برنار ، سبنسر ، الخ .

. . .

٨ — فلسفة العلوم (بوردو)

علم النفس

مقدمة

موضوع علم النفس

٩ — هل نستطيع تعريف علم النفس كما يعرفه علماء القرن الأخير بأنه : « علم حوادث الشعور » . ؟ وبتعبير آخر ما هي مميزة الحادث النفسي ؟ (الجزائر ١٩٢٦)

9. peut-on, avec les psychologues du siècle dernier, définir la psychologie « la science des faits de conscience » ? En d'autres termes, quelle est la caractéristique du fait psychique ? (Alger, 1926)

متن

١ كثيراً مايعرّف علم النفس بأنه علم حوادث الشعور . ويبدو هذا التعريف لأول نظرة تعريفاً مضبوطاً على اعتبار حوادث النفس لا مكان لها ولا يطلع عليها أحدنا إلا بشعوره .

٢ . مع أن هذا التعريف ذو نقائص . فهو يجعل « الشعور » صفة مميزة للحادث النفسي بينما الحوادث النفسية قد لاتتصف بالشعور فقد تكون أحياناً تحت الشعور وأحياناً في اللاشعور (مثال ذلك ، ذكرى منسية)

٣ — فينبغي إذن إعطاء علم النفس تعريفاً أوسع من التعريف السابق . فنقول إنه علم حوادث الحياة الفكرية وقوانينها . وإن كان لايجوز اعتبار

الشعور مميزاً أساسياً للحادث النفسي فذلك لأن كل ماهو بسكولوجي ليس هو حتماً شعوريا وقد استنتج ديكارت في إحدى مقالاته عن الطريقة بأنه موجود يقيناً بعد إن كان شاكاً ولم يستنتج ذلك ويعترف بوجوده إلا « من حيث هو كائن مفكر » . فالتفكير خصوصاً والحياة الداخلية عموماً وما فيها من عواطف وعمليات ذهنية وأفعال ، كل هذا يؤلف الموضوع الخاص بعلم النفس . والنتيجة أن علم النفس يدرس « جميع حوادث الأنا » ومختلف حوادث الحياة الداخلية .

١٠ — يُرجع المذهب الوضعي علم النفس الى علمي الحياة والاجتماع . ما رأيك في هذه النظرية ؟ (ديجون) .

10. Le positivisme ramène lapsychologie à la biologie et à la sociologie. Que pensez-vous de cette théorie ? (Dijon) .

شرح

١ — انتقاد وضعي لطريقة الملاحظة الداخلية

إن التصنيف الوضعي للعلوم لايضع مكاناً لعلم النفس . فبعد أن يذكر علم الحياة يذكر رأساً علم الاجتماع . وقد نرى أن هذا الحذف غير مبني إلا على أساس إرادي بمعنى أن أوغوست كونت أراد ألا يقبل علم النفس لمجرد أنه يتأتي عن الطريقة الداخلية . ولأوغوست كونت طريقة ومذهب جملاه يحارب الفلاسفة الفكريين Idéologues والإنتقائيين Eclectiques والايكوسيين Ecossais . وهو ينتقد خاصة طريقة هذه المدارس الثلاث « الطريقة الداخلية » . إذ كيف يتاح للعضو نفسه بآن واحد أن يفكر ويلاحظ نفسه كيف يفكر ؟ « الواقع أن الفكر والدماغ لايستطيع أن يقسم نفسه إلى قسمين : قسم يفعل وقسم ينظر كيف يفعل . والمحاولات التي تستهدف ملاحظة النفس البشرية بنفسها وسبقاً للتجربة إنما هي محاولات باطلة » (ـ عن رسالة إلى فالاة) .

على أن أوغوست كونت لاينفي إمكان إطلاعنا على الحوادث النفسية بواسطة الشعور . بل يعترف بذلك صراحة . ولكن الذي يراه مستحيلاً هو دراسة الفاعلية الفكرية واكتشاف القوانين العقلية بطريقة داخلية . فينبغي إذن اللجوء إلى طرائق أخرى .

٢ – الطرائق الصحيحة لعلم النفس

وهذه الطرائق اثنتان : فإما أن نحدد بدقة الشروط العضوية التي تخضع إليها الحوادث النفسية (وهو موضوع الفيزيولوجيا الفرنولوجية[1]) وإما أن نلاحظ مباشرة منتوجات الفاعلية العقلية والخلقية (وهو من مواضيع علم الاجتماع) .

٣ علم النفس وعلم الحياة

فالحوادث العديدة والمختلفة الحاصلة في الكائن الحي الشاعر، تتفاعل وتلاقي ردود أفعالها بدون انقطاع . ولا تخرج الحوادث النفسية عن هذا القانون، مادامت في كل لحظة تؤثر في الجسم بواسطة الجملة العصبية . وقد مدح أوغست كونت « كابانيس » و «غال» لأنهما أول من فهم علم النفس فهماً وضعياً مكتفيين بالملاحظة البسيطة للحوادث النفسية وبتفسيرها فقط بعلاقتها مع الأعضاء المادية . ولا شك أن أوغوست كونت لايقبل بدون تحفظ ما أتى به غال من التحليل الفرنولوجي الأساسي أي نظرية المراكز الدماغية بما يقابلها من وظائف ذهنية . إلا أن أوغوست كونت يقول « فرضية وضعية ولو خاطئة، هي خدمة تعود بالنفع على العلم في بداية أمره » .

---

(١) الفيزيولوجيا الفرنولوجية Phrénologique هي الفيزيولوجيا التي تدرس تلافيف الدماغ من حيث علاقتها بنمو الملكات وما شابه ذلك . وقد قل شأنها اليوم .

وإذا كانت محاولة الفيزيولوجيا الفرنولوجية بيان علاقات الوظائف الذهنية بأقسام الدماغ فإن أوغوست كونت يحرص على هذه المحاولة في كتابه «الفلسفة الوضعية» بحيث نرى علم النفس بالنسبة إليه جزءاً من علم الفيزيولوجيا . أليس إلا دراسة « الملكات » وعلاقتها بالدماغ ؟ .

٤ — علم النفس وعلم الاجتماع

وفي سنة ١٨٥١ نرى اتجاه أوغوست كونت يتغير في كتابه «السياسة» . فلم يعد يعترف بفيزيولوجيا غال إلا من حيث فائدتها التاريخية . وقد تغير مفهومه لعلم النفس وكان لتأسيس علم الاجتماع أثر كبير في هذا التغيير . قال لفي برول : « إن علم النفس الذي كان في كتاب الفلسفة الوضعية بيولوجياً في الذات أصبح في كتاب السياسة سوسيولوجياً في الذات ولم يعد بيولوجياً إلا في العرض » . ولما كان الموضوع الواجب تحليله في علم النفس بواسطة الشعور الفردي إنما هو صعب المجال والحياة الفردية قصيرة لذلك يجب أن يكون موضوع علم النفس « البشرية كلها » أي دراسة النوع حيث يتسع المجال لتمييز الوظائف . ويضاف إلى هذه الدراسة وسيلة للتثبت ألا وهي دراسة الحيوان لأن أكثر استعداداتنا الفطرية نلمسها في الحيوانات العالية . وهكذا يصبح المبدأ العام للدراسة الوضعية في علم النفس « ما يوحيه علم الاجتماع » مع الاستعانة بعلم الحيوان .

٥ — خلاصة

والخلاصة أن لأغوست كونت مفهوماً عن علم النفس خاصاً به . فهو يستعيض عن بسكولوجياء الانتقائيين التي ليست من الوضعية في شيء ، بعلمين : ١° – علم تجريبي للحوادث النفسية من حيث علاقتها بالشروط العضوية وهو البسكولوجيا الفيزيولوجية التي لا يستطيع أحد نكران مشروعيتها ٢° – علم ذي إتجاه

سوسيولوجي يستوحي منه أوغوست سلسلة من الدراسات بدأت تنمو وتترعرع ألا وهي البسيكولوجيا السوسيولوجية، بسكولوجيا الأقوام، بسكولوجيا الجماعات الخ ... — على أن هذا لا ينفي صحة بقاء علم النفس علماً له موضوعه ولا يتاح لنا أن نقبل مع كونت عدم مشروعيته وفائدته لمجرد كونه علماً متين الروابط مع الفيزيولوجيا والاجتماع .

. . .

١١ – هل نستطيع دراسة الحياة النفسية بدون الاهتمام بحياة الجسد (بوردو ١٩٢٧) .

. . .

١٢ — هل يستطيع عالم النفس أن يستغني عن الملاحظة الداخلية ليحصر مباحثه في سلوك الانسان وأعماله من حيث علاقتها بالظروف التي تحيط بها ؟ (باريز ١٩٣١) .

12. Le Psychologue peut-il renoncer à l'observation interieure pour se borner à constater comment les hommes se comportent dans les diverses circonstances où ils se trouvent placés ? (Paris 1931)

شرح

علم النفس هو علم الحوادث النفسية وقوانينها .

١ – النظرة الشخصانية والنظرة الموضوعية

والحوادث النفسية هي الحوادث التي يشعر بها الإنسان أنه كائن وأنه يفكر وأنه يعمل . فلهذه الحوادث إذن وجهان : وجه شخصاني نراه من الداخل عن طريق الشعور الشخصي ، ووجه موضوعي نراه من الخارج عن طريق الظواهر الفيزيولوجية والاجتماعية وردود الأفعال والأمراض النفسية وما شابهها . فهل يستطيع علم النفس الاستغناء عن الطريقة الداخلية

ليحصر نفسه في حدود سلوك الإنسان من حيث علاقته بالظروف المحيطة به؟

٢ – الحياة النفسية والحياة الجسدية

لاشك أن الدراسة الموضوعية لسلوك الإنسان هي مشروعة وضرورية. وهي مشروعة مادامت الحياة النفسية تابع متعلق بحياة الجسد ومادامت الحوادث النفسية مرتبطة بالشروط العضوية. وهذه الشروط منها مركزي يتصل بالدماغ ومنها محيطي يتصل بمحيط الجسم. وكلاهما مبرهن في دراسة الهيجان والإنتباه والإضطرابات الذهنية. على أن بعض العلاقات توجد بين النفس والجسد بحيث لايستطيع عالم النفس دراسة الحادثة النفسية إلا ويدرس معها سلوك الإنسان أي مجموع ردوده الفيزيولوجية. وعن ذلك نشأت أهمية البسيكوفيزيولوجيا وأهمية بسيكولوجياء رد الفعل Psycho-logie de réaction.

٣ – الحياة النفسية والحياة الاجتماعية

ثم إن الحياة النفسية تابع متعلق أيضاً بالحياة الإجتماعية. فكل حادث نفسي معقد يلي شروطاً إجتماعية. وعدا أن هناك ردوداً فيزيولوجية فهناك ردود إجتماعية محافظة بتأثيرات الجماعة. و كذلك الأمر في طرق التعبير اللغوي وطرق التفكير والأنماط العاطفية والعملية. ولقد بيّن تارد كيف يؤثر الفرد في الفرد واعتنى دور كهايم كثيراً هو والمدرسة الفرنسية المعاصرة في إظهار أثر الفعل الإجتماعي في الشخصية الفردية [١].

وإن كان جديراً بنا أن ندرس الوجه الموضوعي والفيزيولوجي للحادث النفسي فجدير بنا أيضاً أن ندرس الحادث النفسي في العادات الأخلاقية وتقاليد

---

(١) أنظر الشرح رقم ١٥٧

الجماعات وتأسيساتهم [1] ولغاتهم وجميع ظواهرهم الجمعية .

٤ — عدم كفاية النظرة الموضوعية

ولكننا يجب أن لانذهب بعيداً في هذا الإتجاه ولا نجعل علم النفس مجرد دراسة السلوك الفردي . فإذا استثنينا بعض الحالات البسيطة التي أشار إليها كونت وشرحها ريبو فإننا نقول لاتكفي النظرة الموضوعية على كل حال . أجل إن الحياة النفسية حلقة وصل بين الحياة البيولوجية والحياة الإجتماعية ولكنها ذات كيان خاص لايجوز إرجاعه إلى إحداهما . فليست دراسة السلوك إلا متممة لبسيكولوجياء الشعور . والتفكير إنما هو وظيفة مركبة تتداخل في جميع الحياة النفسية وليس مجرد تكييف الفرد مع المحيط ، ولا سيما أن ثمة نوعاً من التفكير اللاغرضي لايجوز نكران أهميته .

وأخيراً إذا قال دوركهايم «الإنسان كائن حيوي مطعم بطعم اجتماعي» فإن هذا القول لايمنعنا من الاعتقاد بأن الإنسان يفعل ويستطيع أن يفعل فعلاً نفسياً شخصياً وأنه قد لايخضع إلى المجتمع بل قد يتأمل فيه وينتقده» .

وبكلمة واحدة ليس الإنسان مجرد نسخة إجتماعية طبق الأصل .

٥ — ضرورة الملاحظة الداخلية

فمن الضروري إذن أن يسلك عالم النفس الطريقة الداخلية ليدرك بالحدس تارة والتأمل أخرى ما في الحياة الباطنية من حوادث نفسية محضة . والنظرة الداخلية لابد منها كلما أراد الإنسان أن يصعد بفكره إلى ماهو أعلى ويميز في الحياة الفكرية ماهو نفسي شخصي عما هو سواه .

---

(١) نستعمل كلمة « تأسيسة » مرادفة لكلمة institution . ولم نستعمل كلمة « مؤسسة » لدلالتها على أشياء مادية (مثلاً مؤسسات خيرية ، عسكرية الخ ..) فكلمة تأسيسة في علم الإجتماع تدل على مايؤلف قوام مجتمع معين أو يكون أحد أركانه ومن إيجاده وإيحائه (مثلاً الدين تأسيسة اجتماعية ، ومثله الحقوق والعادات والأخلاق) . (المترجم)

١ - الحياة الانفعالية

١ ـ اللذة والألم

١٣ – يقبل بعض علماء النفس (ومنهم بن ، ووندت) بوجود حالات نفسية ليست هي بالملائمة ولا هي بغير الملائمة ويسمونها حالات وسطى أو معتدلة ويأتي (بن) بمثال عنها هو العجب والدهش . فهل تعتقد كما يعتقدون بإمكان وجود هذا الاعتدال المطلق . ما هي دلائلك التي تستند إليها في جوابك سلباً أو إيجاباً . (فانسي ١٩٣٠) .

. . .

١٤ – طبيعة اللذة والألم . علاقاتهما وشأنهما في الحياة الفكرية والاخلاقية .	14. Nature du plaisir et de la douleur. Leurs rapports et leur rôle dans la vie intellectuelle et morale.

متن

١ – طبيعتهما : نوعان من النظريات في طبيعة اللذة والألم .

١ً) نظريات العقليين : الديكارتيين ، هربرت ، ناهلوفسكي .

٢ً) النظريات التي تشتق اللذة والألم من الفاعلية : أرسطو ، غروت ، هاملتون ، ستوارت مل ، سبنسر ، الخ .

٢ – علاقاتهما : يمكن إرجاع علاقاتهما إلى ثلاث نقاط أساسية :

١ً) يتتابعان ويتناوبان بدون انقطاع .

٢) يختلطان (لذات مُرة المذاق ، أفراح مؤلمة ٠٠)
٣) يتمايز كل منهما بضده ٠

٣ - شأنهما : يلعب كل منهما دوره في الحياة الفكرية والحياة الأخلاقية ٠ وذلك إما بحض الإنسان على السعي وإما بتوجيه فاعليته ٠

١) شأن اللذة :

أ) اللذة إشارة الخير ٠ فهي تدل على نشاط الفاعلية وأنها في سيرها الحسن الإعتيادي ٠ فهي إذن « دليل » ولكنها ليست دليلاً معصوماً عن الخطأ ٠ فقد يمارس الإنسان نوعاً ما حريته ويكوّن لنفسه حاجات اصطناعية يقتفي اللذة فيها بنفسه ٠ وهناك لذات مغرية تقود إلى انحلال الجسم (لذة الغريزة الجنسية) ٠

ب) واللذة أيضاً « محرّض » يحض الفاعلية على السعي ٠ ولولا اللذة التي تتوّج نهاية العمل (كما يتوج جمالُ الفتوة شبابَ الفتى - أرسطو) لكان الجهد والعمل مكروهةً ينفر منها الإنسان وسرعان ما يترامى في أحضان الكسل ٠

حـ) ومن طبيعة الإنسان أن يشعر باللذة ، كلما أشبع حاجة من حاجاته المادية (لذة الشبع بعد الجوع ، لذة الري بعد الظمأ ٠٠) وهو حين يبحث عن الحقيقة ويروي غريزة حب الإطلاع يشعر بلذة عليا بعد بذله الجهود الفكرية ٠ وكذلك الأمر حين يشعر بكمال أخلاقي حظي به أو حين يؤدي واجباً تلك التأدية التي تعد عنصراً من عناصر السعادة ٠

٢) شأن الألم :

أ) الألم إشارة الشر ٠ فهو يدل على عدم نشاط الفاعلية وأنها في سيرها السيء غير الإعتيادي ٠ فهو نذير ينبيء عن الخطر ولكنه ليس نذيراً يوثق

به ثقة عمياء . فقد يكون إنذاره شديداً في مواضع قليلة الخطر (ألم الضرس) ويكون ضعيفاً بل معدوماً في مواضع كبيرة الخطر (مرض السل) . على أن فائدته العامة لا تنكر من حيث دلالته على فساد العضوية سواء كان ألماً موضعياً أو توعكاً معنوياً محيطياً . وهو بمثابة « لجام » يوقف الفاعلية ويحرفها عن اتجاهها .

ب) والألم أيضاً « محرّض » يحض الفاعلية على السعي والإبداع والاختراع . فليست اللذة وحدها داعياً للعمل بل إن الخوف من الألم كان ولا يزال باعثاً لمواصلة السعي الإنساني وتحسين شروط الحياة البشرية وتقدمها .

ح) وإذا كان من طبيعة الإنسان أن يتألم ألماً شديداً كلما جاعت غرائزه المادية فكذلك يتألم ألماً شديداً كلما جاعت غرائزه المعنوية كما هي الحال في شعوره بنقص كيانه الأخلاقي . ويبدو هذا الشعور بالنقص في حالات منها توبيخ الضمير ومنها الندم (ر : الموضوع ٢٢٧) . فالألم عامل فعال من عوامل الكمال الأخلاقي .

٤ـ والخلاصة إن لكل من اللذة والألم فائدته وغايته .

. . .

١٥ - بيّن أن اللذة تلد عن الفاعلية ولكنها في الوقت نفسه تُولد بدورها زيادة الفاعلية وتُقويها . (ديجون) .

. . .

٢ — الهيجانات

١٥ — ماذا يُفهم من كلمة « هيجان » وما هي شتى الكيفيات التي تُفهم فيها هذه الحادثة وتُفسر ؟ (باريز)

15. Qu'entend-on par émotion ? Différentes manières de comprendre et d'expliquer ce phénomène (Paris)

شرح

تستعمل كلمة هيجان في علم النفس المعاصر للدلالة على الحوادث العاطفية التي من النوع الشديد في مبطنه وخصوصاً في مظهره الخارجي ويلاحظ ريبو بحق أن كل هيجان يبرز فيه عنصره المحرك (motio, mouvement) . ولكن كلمة هيجان عند علماء النفس أخذت معاني مختلفة . فمنها ما دل على معناها الواسع فشمل جميع صور الحياة الإنفعالية والعواطف حتى الحالات العامة منها كاللذة والألم، ومنها ما دل على معناها الضيق فلم يشمل إلا بعض الحالات الإنفعالية كالخوف والدهش والغضب . والمعنى الأخير أدق وهو المرجح

ويميز وليم جمس بين « الهيجان الصدمي » émotion-choc الذي يُعرف بفجائيته وقصر استمراره كالخوف والمفاجآت ، وبين « الهيجان العاطفي émotion-sentiment الذي يُعرف باستمراره ودوامه كالغم والملالة أو الفرح والسرور .

ويفيدنا هذا التمييز ، غير أن ريبو في كتابه بسكولوجياء العواطف يظهر أنه لا يقبل إلا فكرة الهيجان الصدمي . فالفرح والحزن بنظره حالات عامة، كاللذة والألم، لا يجوز إدخالها في تصنيف الهيجانات ذات الخصائص النوعية .

على أننا إذا قبلنا عدم التفريق بين الهيجان والعاطفة يجوز أن نقول إن الهيجانات هي اللذات والآلام التي من النوع المعنوي خلافاً للذات

والآلام الجسمانية . وهي تنشأ عن فكرة (كالإنفعال الحادث عن فقدان قريب) بينما النوع الثاني ينشأ عن سبب فيزيولوجي (كالوجع العصبي أو ألم الضرس).

أما إذا قبلنا تمييز وليم جمس فإننا نطلق اسم الهيجان على الحالات الإنفعالية التي تجعل العضوية في اتصال وثيق مع الإضطراب الهيجاني والتي تمتاز بفجائيتها وشدتها و كونها بنت وقتها.

إن التحليل البسكولوجي يقودنا إلى تمييز عوامل ثلاثة أساسية في الهيجان: ١) عنصر ذهني تمثيلي représentatif ٢) اضطراب انفعالي ٣) تبدل عضوي. ففي حادثة الخوف مثلاً نلاحظ مراحل ثلاث: فكرة الخطر، الهيجان الناتج عن هذه الفكرة، ثم الحوادث التي تتبع الهيجان وتترجم عن باطنه بظهورها (كالاصفرار والرجفان وغيرهما).

هذه هي العناصر الثلاثة التي تؤلف الهيجان. وقد اختلف علماء النفس في اعتبار الرئيسي منها. هل العنصر الذهني أم العنصر الفيزيولوجي؟ وهنا مجال لنظريتين: أولاً نظرية عقلية كما يريد أن يسميها ريبو، تعتبر العنصر العقلي أي العنصر البسكولوجي. ثانياً نظرية فيزيولوجية (عند جمس ولانج) تعتبر العنصر الفيزيولوجي. ولبيان الفرق بين النظريتين نرجع إلى مثالنا الخوف فعلماء النفس (البسكولوجيون) يلاحظون فيه تتابع الحوادث كما يلي: ١ — إنساناً يرى شيئاً مخيفاً ٢ — يخاف (حادثة بسكولوجية) ٣ — يضطرب ويمتقع لونه ويقشعر الخ.. ولكن جمس يلاحظ تتابع الحوادث هكذا: ١ — إنساناً يرى شيئاً مخيفاً ٢ — يضطرب ويمتقع لونه ويقشعر (حادثة فيزيولوجية) ٣ — يخاف (حادثة بسكولوجية فالهيجان بنظره إنما هو انتقال التأثرات العضوية إلى الشعور فليس الحادث النفسي سبباً إنما هو نتيجة التأثرات العضوية. وبتعبير آخر إننا نخاف لأننا نرتجف، لا إننا نرتجف لأننا نخاف. و كذلك الأمر في قولنا إننا نحزن لأننا نبكي لا إننا نبكي لأننا نحزن.

ويفترق لانج عن جمس في ناحية واحدة ألا وهي أن جمس يعمم النظرية في العواطف والهيجانات الصدمية على السواء بينما لانج يحصرها في الهيجانات الصدمية فقط • ولعل دراسة لانج أقل مخاطرة من دراسة جمس لأن العواطف التي من النوع العالي كالحس البديعي مثلاً يسودها العنصر الذهني ولا ينهمك الجسد كثيراً في حدوثها بمقدار ما ينهمك في حادثة الخوف •

وعلى كل حال فإن إنكار العامل الذهني في الهيجانات الشديدة كالخوف والغضب لايخلو من مبالغة • ولقد قيل إن رؤية الأسد في قفصه لاتبعث في النفس ماتبعث رؤيته في الفلاة •

أما قضية تتابع العناصر فمن الصعب البت فيها • والتجارب الاصطناعية التي جرت لتحقيق النظرية المحيطية لاتستوجب الإطمئنان فاذا كانت الوضعية كذا التي يتخذها الجسم توحي إليه العاطفة كذا ، فما الذي يبرهن لنا على أن الفكرة لم تتداخل في جر هذه العاطفة ؟ لاشك أن جمس ولانج لم يخطئا في بيان أهمية أثر الوضع العضوي في كيان الهيجان إذ لامعنى للخوف والغضب بدون صورهما الجسدية بل إنهما يمسيان حالتين مجردتين مبهمتين لا لون لهما • غير أن النظرية المحيطية وصلت إلى إنكار أهمية أثر الفكرة واعتبار هذا الأثر ثانوياً حتى أن لانج يذهب بعيداً بحيث يقول يمكن استبدال عمل الفكرة بعمل فيزيقي أي بمؤثر مادي يهيج العواطف • وهنا يبقى للنظرية التقليدية حق الرجحان • والنتيجة أن النظريتين إحداهما تفيدنا لبيان شأن الجسد في تكوّن الهيجان والثانية لبيان شأن الفكرة •

• • •

١٧ - هل يجوز إرجاع الهيجانات إلى حالات ذهنية ؟ (بواتيه ١٩٢٧)

• • •

١٨ — قارن بين الاحساس والهيجان. (ليل ١٩٣٣).

18. Comparer la sensation et l'émotion. ‹ Lille, 1933 ›

متن

١. — كلاهما يدل على أحوال انفعالية سواء من نوع اللذة أو من نوع الألم. غير أن الإحساس يدل على اللذات والآلام الجسمانية (لذة الشبع بعد الجوع. ألم الضرس). والهيجان يدل على اللذات والآلام المعنوية (نجاح في فحص، فقدان صديق).

٢. — يميز علم النفس المدرسي أحدهما عن الآخر منذ زمن طويل بالفروق الآتية :

١ً — سبب الإحساس مؤثر جسماني وسبب الهيجان فكرة.

٢ً — يجوز تعيين مكان الإحساس من الجسد بينما لايتاح تعيين مكان الهيجان. وبتعبير أدق إن مكان الإحساس هو مكان السبب المادي الذي يثيره بينما يُنسب الهيجان إلى مكان نتائجه وظواهره وليس لسببه مكان.

٣ً — يدوم الإحساس مابقي الأثر المادي وسرعان مايزول بزواله. بينما لاتزول العاطفة بهذه السرعة بل تستمر في الذاكرة.

٤ً — يرافق اللذة الجسمية تعب مع الاستمرار ولها حدود بينما تستمر الهيجانات وليس لتعبها حدود معينة.

٣. — هذه هي تمييزات النظرية المدرسية. وهي كما ترى لاتخلو من مبالغة ما دام هنالك مجال لقبول النظرية الفيزيولوجية للهيجان. فالنظرية الفيزيولوجية للهيجان تشير إلى شأن الجسد في حدوث الهيجان كما هي الحال في حدوث الإحساس (ر: الموضوع ١٦).

. . .

١٩ - أليس الهيجان إلا الشعور بعاصفة فيزيولوجية وردود حركية ؟ (كان ١٩٣١)

. . .

٢٠ — هل تشعر نفس بلا جسد ، بالحزن والفرح والغضب والخوف ؟ (بوردو ١٩٣٠)

. . .

٢١ — ماذا نملك من حول وقوة على هيجاناتنا وما هي وسائلنا ؟ (باريز) .

21 . quelle action pouvons-nons avoir, et par quels moyens, sur nos émotions ? (Paris) .

شرح

للهيجانات أثر قوي فينا ولها خطرها[1] من حيث أنها تفلت قياد أنفسنا وتضيع علينا رشدنا . ويفيدنا أن نتساءل هل نحن لنا بدورنا أثر على هيجاناتنا ، وإن كان لنا ذلك فما هي وسائلنا ؟ هذا سؤال يهم علم النفس والتربية كليهما وليست التربية في الواقع إلا تطبيقاً من تطبيقات علم النفس .

---

(١) لعل الطالب العربي أحوج من سواه في هذا العصر إلى ملاحظة أهمية الهيجان والالتفات إلى نتائجه في السلوك البشري . ونضيف إلى ملاحظات المؤلف خلاصة قوانين الهيجان فيما يلي : الهيجان في الطفل أكثر منه في الراشد ، في المرأة أكثر منه في الرجل ، في الإبتدائي أكثر منه في المتمدن ، في الجاهل أكثر منه في المثقف ، في الأقوام الإبتدائية أكثر منه في الأمم الراقية . وهذا يدلنا على أن كثرة الهيجان ظاهرة من ظواهر الإنحطاط . فلنفحص أفراد مجتمعنا تحت ضوء هذه الملاحظات ولنعط كل فرد قيمته ولنعلم أن هذه الخلاصة توحي الهدوء والرزانة قليلاً أو كثيراً مع الإعتياد .

(المترجم)

الهيجانات والعواطف

يميز أحياناً بين الهيجان والعاطفة . فالهيجان حالة إنفعالية مرتبطة بردود عضوية قوية ، كالخوف والغضب . والعاطفة حالة انفعالية مرتبطة بردود عضوية ضعيفة ، كالحزن والحس البديعي . ولكنما هذا التمييز غير حاسم . لأن بين الهيجانات والعاطفة من الفرق ما بين الهيجان الشديد والهيجان الخفيف الخفي . وللعضوية نصيبها من التدخل دوماً أيا كانت الحالة الإنفعالية كما أن الهيجان والعاطفة كليهما مرتبط بأفكار وصور .

نصيب العضوية في الهيجان

وهو ما تعترف به النظريتان المحيطية والذهنية معاً . ولا تختلف النظريتان في الواقع إلا من حيث ترتيب العناصر . فبينما يرى الذهنيون أن الفكرة تثير الاضطراب العضوي بواسطة الهيجان يرى جمس أن الفكرة تثير الإضطراب العضوي مباشرة وليس الهيجان إلا صدى الإضطراب العضوي في الشعور . فالنظرية الأولى تلفت النظر إلى أهمية الفكرة والثانية إلى أهمية العضوية . ثم إذا كان الهيجان مرتبطاً عادة بأفكار وصور فهو مرتبط أيضاً بردود عضوية يمكن أن تكون أسباباً كما قد تكون ظواهر ونتائج . لنجرب ولنتصور حالة الخوف والغضب بدون أوضاعهما الجسمية وبدون الإصفرار والإحمرار وبدون الرجفان وتشنج العضلات ، إن ما نتصوره هكذا ليس إلا هيكلاً جامداً وصورة ميتة .

نستنتج من هذا التحليل النفسي الموجز نتائج عملية .

يتاح لنا التأثير على الهيجان بواسطة ردود عضوية

فإذا كان الهيجان مرتبطاً بردود عضوية و كان حدوثه منوطاً أحياناً بإحداث مثل هذه الردود فلنسع إذن في إزالة الردود في حال حدوثها أو نسع على الأقل في مجابهتها والسيطرة عليها

عضوياً. قال وليم جمس: « إذا أردت أن تمارس الغم والملالة، فابقَ طوال نهارك جالساً على مقعدك، وتنهد دائماً وأجب سائليك بأصوات حزينة ».
وقال أحد الحكماء لشاب ضعيف « إذا أردت أن تكون رجلاً من رجال القوة فامش في طريقك ناصب القامة، عالي الرأس، نافخاً صدرك ».
وقد بيَّن باسكال في كتاب « الأفكار » أن ممارسة العبادات في دين ما يقود إلى الاعتقاد به والشعور بخشوعه.

والنتيجة أن مكافحة هيجان ما تستوجب إتخاذ المظاهر المقاومة لاتجاهه.
وهناك نوعان من الردود العضوية. منها خارجي سطحي ومنها داخلي عميق.
فالخارجي ما ذكر عنه جمس مثالاً في قوله « إن الممثلين الماهرين يتخذ أحدهم في وجهه أو مشيته أو صوته، ما يناسب هيجاناً معيناً دون أن يكون قد تأثر داخلاً بهذا الهيجان ». أما الداخلي من الردود فقد يحدث في فئة من الناس يحيا فيهم الهيجان مبتدئاً بردود ظاهرية تجر ورءها ردوداً باطنية.
وهو ما دعاه جمس « بالناحية الحشوية العضوية » للهيجان.

يتاح لنا التأثير على الهيجان بواسطة فكرات

أما وقد رأينا من السهل (أو الممكن على الأقل) إتخاذ الردود العضوية لتقوية هيجان ما وإضعاف آخر. فهل نرى أن إتخاذ الفكرات يقودنا إلى نتيجة مشابهة ؟

الجواب يستلزم تذكر النظرية الذهنية. فمهما كان شأن تداخل العضوية فللفكرة مثل هذا الشأن بل إن فقدان الفكرة غالباً ما يبطل حدوث الهيجان صدمياً كان الهيجان أم عاطفياً. قال « مالابر » في الهيجان الصدمي (الخوف): « إن رؤيتي الأسد في قفصه لايخيفني ولكن رؤيتي الأسد في الفلاة يبعث في نفسي هيجان الخوف » فلا مجال إلى إنكار أهمية العنصر

الذهني . ولا سيما أنه يزداد نفوذاً كلما انتقلنا من حيز الهيجانات الشديدة إلى حيز الهيجانات الخفيفة الخفية .

وإن كنا اعتبرنا الفكرة نقطة المسير في العاطفة على كل حال، واعتبرناها نقطة الإتجاه ومركز المعنى والتأويل ، وتذكرنا أن الإنتباه هو الذي يفيدنا في السيطرة على أفكارنا، سرعان ما نفهم أن سيطرتنا على أفكارنا تقودنا إلى امتلاك قياد أنفسنا . فعلينا إذن أن نقصي عن أنفسنا كل فكرة سيئة من شأنها تنمية عاطفة مضرة ونجهز الذاكرة بكل فكرة جميلة من شأنها تنمية عاطفة جميلة . قال بايو : « إن كانت الاكتشافات والإستيلاءات الفكرية تتم بفضل التفكير فيها طويلاً فإن الإستيلاءات العاطفية تتم بفضل نسيانها وعدم التفكير فيها » فلنغلق الباب إذن في وجه الأفكار الوطيئة المتصلة بالعواطف الدنيئة ولنفتحه على مصراعيه نحو كل فكرة سامية شريفة عالية .

. . .

٢٢ – صف الهيجان البديعي وصفاً بسكولوجياً (بواتيه ١٩٢٢) .

٣ — الميول

الأثرة • العطف • التقليد

٢٣ — قل ماذا تعرف عن الميل • بين أثره في الحياة الإنفعالية والحياة الفاعلة • حلل ميلاً من الميول تعرفه أكثر من سواه وعيّن شروط نموه البسكولوجية والإجتماعية (رهن ١٩٢٧) •

٢٤ — هل حب الذات أساس كل ميولنا ؟

24. L'amour de soi st-il le principe de toutes nos inclinations?

متن

١ — نظريتان • ١) نظرية لارشفوكولد ٢) نظرية سبنسر

فالنظرية الأولى ترى أن الغيرية إنما هي الأثرة نفسها ولكنها متخفية في ثوب حب الغير • قال لارشفوكولد : « كل عاطفة فينا وفضيلة ، متجهة إلى الانصباب في مصلحتنا الشخصية كما تتجه مياه الأنهر إلى الإنصباب في ماء البحر » • والنظرية الثانية تعترف بوجود الغيرية ولكنها تراها مشتقة من حب الذات أيضاً • قال سبنسر : « الغيرية إنما هي وليدة الأثرة • والمصلحة الشخصية دفعت الإنسان إلى التقرب من أخيه الإنسان ليحيا معه حياة إجتماعية فابتكرت الحياة الإجتماعية أنواعاً من التضحيات الفردية • وقد بدأ الفرد بهذه التضحيات بعد حساب نفعي عرف فيه ماله وما عليه ثم انتهى أخيراً بإجراء التضحية للتضحية نفسها •

٢ — نقد نظرية لارشفوكولد :

١ً) يُلاحظ تناقض ضمني في نظرية هذا الفيلسوف الأخلاقي . فهو يعترف بوجود الفضيلة وينكر وجودها .

٢ً) هناك عواطف خالصة فطرية ودوافع إنسانية شريفة لاتنتظر جزاء وقد يقوم بها صاحبها دون أن يكون لديه وقت كاف لحساب ماله وما عليه. وهي أشبه بدوافع الجواد من الخيل التي يُسيرها القلب لا الرأس .

٣ً) إذا أنكرنا وجود الفضيلة فينبغي أن لانسميها فضيلة . فلماذا نلفظ كلمات الفضيلة والبطولة والإخلاص والشرف إذا كان كل ذلك مظاهرُ براقة للأثرة نفسها ؟ الواقع أن لهذه الاسماء مسمياتها فعلاً وليست ألفاظاً تلفظ .

٤ً) رب قائل يقول : يجد الإنسان لذة في حب الفضيلة وعمل الفضيلة والإخلاص إليها . — لاشك ! ولكنها ليست غايته من الفضيلة هذه اللذة، فاللذة تضاف إلى نهاية العمل عرضاً لا جوهراً . قال بول جانه « سرعان مايزول إعجابنا بالبطولة إذا كان صاحبها يفكر بشخصه » .

٣ — نقد نظرية سنبسر .

١ً) تثبت دراسة الغرائز الإجتماعية في أنواع الحيوانات وفي أعمالها العديدة أن بين أفراد النوع إستعداداً للتعاون فطرياً لا حباً بالبقاء فقط .

٢ً) تثبت دراسات علم الاجتماع المعاصر أن لاوجود للفردانية في المجتمعات الابتدائية

٣ً) يلاحظ في الطفل نوع من العطف العفوي لايجوز أن ينسب إلى الأثرة .

٤ — وأخيراً نذكر رأي الفيلسوف « رابيه » القائل إن الميول العالية مشتقة أيضاً من الميول الشخصية . « فحب الحقيقة مثلاً يرجع في الواقع إلى أن الإنسان يحب أن يكون تفكيره متصفاً بكذا من الصفات لا حباً بحقيقة خارجية موضوعية » . نقد هذا الرأي : إن في الحق والجمال والخير

وجهاً موضوعياً بفرض موضوعيته فرضاً . ولا مجال مع ذلك إلى تشخيص هذه المثل العليا لأنها صفات جديرة بالآله ولاتجتمع إلا بالكائن الأعلى عز وجل .

. . .

٢٥ — فسر وناقش هذه الكلمة : لاينبغي أن نقول منبع الغيرية في الأثرة . إن هذين الدافعين في السلوك البشري وُجدا معاً منذ البدء في كل شعور إنساني . (باريز ١٩٢٩) .

. . .

٢٦ — تحليل العطف تحليلا سكولوجياً . (باريز) .

26. Analyse psychologique du sentiment de la sympathie. (Paris)

شرح

في العطف اشتراك وجداني

علماء النفس متفقون في أن شعور كل فرد مغلق إزاء شعور الفرد الآخر ، وأنه لايتاح لشعور ما النفوذ إلى شعور الآخرين . قال وليم جمس : إن الشعور جدار قائم في وجه الغير وهو ملك خاص بالأنا . وليس في الطبيعة حدود غير قابلة الإختراق مثل هذه الحدود . » على أن عدم هذا الإختراق لايمنع مع ذلك اتصال المشاعر بعضها ببعض بحادثة نفسية تسمى العطف sympathie .

للعطف معنى خاص ومعنى عام

ويقصد بالعطف عادةً تلك الرعاية التي يمنحها شخص لآخر . ولكن العطف بمعناه العلمي (١) أعم من ذلك . إذ هو كما قال

(١) يدل التفسير الإشتقاقي لكلمة sympathie على معنى « الإشتراك بالعواطف » و كلمة العطف المستعملة باللغة العربية لاتدل على هذا المعنى تماماً . و كنا نود استبدالها غير أنها أصبحت مألوفة لدى الاساتذة والطلاب بالمعنى المقصود .

« بن » : ميل الفرد إلى أن يتخذ بالإشتراك مع الآخرين وضعاً واحداً في حالاته الفاعلية أو الهيجانية مستوحى من وضع معين أمامه أو بواسطة تأثيرات نفسية وعبارات لفظية ومظاهر أخرى « لهذا كان «ريبو» محقاً في التمييز بين العطف (عدوى الهيجان وسرايته) وبين الرعاية الحنان . فالهيجانات بنوعيهما من رعاية وسواها كلها قابلة للعدوى . ولا يشترط أن يكون العطف في خروج الفرد من أنانيته « فكثير من الناس إذ يرون منظراً مؤلماً يفرون منه لإزالة ما حدث في نفوسهم من ألم عن طريق العطف »

ويمكن دراسة العطف دراسة دقيقة بالتدرج من صنوفه الإبتدائية البسيطة إلى صنوفه العالية:

أول درجات العطف السراية الحركية

فأول درجة من درجاته هي « تقليد الحركات والأوضاع » أو كما قال « ريبو » اتفاق الميول الحركية المسمى « سراية حركية Synergie . ويوجد هذا النوع من العطف العضوي في الحيوان والإنسان كليهما . فتارة نراه في مسير الغنم وعواء الكلاب وصراخ الدجاج وتارة نراه في ضحك الإنسان وتثاؤبه مع رفاقه إذ يجتمعون . وقد نراه أيضاً في غضب الجماعة وذعرها ونراه في بعض الأمراض الفيزيولوجية النفسية التي تصيب أفراداً يكررون بعض الحركات أو الكلمات تكراراً آلياً .

ثاني درجات العطف السراية الهيجانية

وتفيدنا حادثة تقليد الحركات والأوضاع ، في فهم حادثة أخرى هي ألصق باختصاص علم النفس من هذه . ألا وهي حادثة « تقليد الهيجانات » . وإذا نظرنا مع جمس إلى أهمية الجسد في حدوث

الهيجان يسهل علينا أن ندرك أن إحداث هيجان ما و انتقاله منوط بإحداث حركته المناسبة وانتقالها .

فسراية الهيجان Synesthésie هي ثاني درجات العطف . ومعناها أن يشعر فرد بعاطفة فرد آخر من جراء رؤيته إياه يعبر تعبيراً ما أو يتخذ وضعاً ما . فالخوف والفرح والألم كل ذلك مدعى للسراية والعدوى . والسراية هنا كما قال « ريبو » هي إتحاد نفساني ولكنها تختلف أيضاً عن العطف بمعناه العادي (أي الرعاية والحنان) .

في الرعاية ماهو أكثر من عطف

فالعطف بمعناه العادي فضلاً عن كونه اتحاداً نفسانياً هو أيضاً رعاية وحنان . وهو درجة راقية من درجات العطف الذي نعالج دراسته الآن . ولا يمكن اعتباره حادثة بسيطة لما فيه من تجردات عن حب الذات إرادية وما يمازجه من غيرية وما سواها ، وعلى الأغلب يكون العطف سلبياً مع أن هذا العطف الراقي تجد فيه الفاعلية أرضاً خصبة .

ليس العطف حالة إنفعالية فقط بل هو ذهني أيضاً .

ونضيف إلى تقليد الأوضاع و تقليد الهيجانات تقليداً آخر هو العطف الذهني ، أي اتفاق الأفكار . واتفاق الأفكار هذا يقرب الناس بعضهم من بعض ويجمعهم فئات فئات حول مثل عليا معينة فيخلصون إليها .

يتسع العطف بالتخيل ويحيا .

وأخيراً لاننسى علاقة العطف بالتخيل . فقد لاحظ (بن) أن قساوة العاطفة في بعض الناس ترجع إلى فقر التخيل عندهم . فلكي نشعر بألم الآخرين ينبغي أن نتمثل في أذهاننا حالاتهم كأننا نحن فيها .

وينطبق الأمر على الحالات الإنفعالية بنوعيها شديدة كانت أم ملائمة .
وبمقدار مايغنينا الخيال بالصور القوية يتاح لنا الشعور بالعطف لذلك يزداد شعورنا بألم المتألمين إذا كنا قد أصبنا فيما مضى بما أصيبوا ولذلك أيضاً نشعر مع مواطنينا بعطف لانشعر به مع الأجانب . وإذا كان الطفل لايشترك في العطف مع من يحيطونه من أقربائه بمناسبات الأفراح والأحزان فذلك لأنه لا يدرك ما يدركون .

والتخيل شرط من شروط العطف به استطاع الشعراء والفنانون الإشتراك مع الطبيعة كأنها كائن حي . قال الشاعر :

أيتها الكائنات الجامدة هل لك روح تتكلمين
فكيف إذن تتصلين بأرواحنا وتبعثين في نفوسنا المحبة؟

فالتخيل يحيا العطف ويتسع ويعم . وما يقال عن التخيل يقال عن التفكير إذ به أيضاً يظهر للفرد أن هناك أفراداً سواه يعيشون مثله في دائرة غير دائرته . قال فكتور هوجو مخاطباً أحدهم « أيها الذي لاتشعر والذي تعتقد أني غيرك . . » . — لاشك أن في العاطفة والحالات الإنفعالية إستعدادات لهذه الغيرية وبدءاً للاغرضية ولكن التفكير يتمم هذه اللاغرضية وينميها وبواسطته نخرج عن أنفسنا حقاً وبه تبني الخلية النفسية نوافذ تتطلع منها إلى العالم الخارجي .

٢٧ — العطف والتقليد
كيف نفهم علاقاتهما ؟

27. La sympathie et l'imitation.
Comment peut-on concevoir leurs rapports ?

متن

١ — ا) يختلف معنى العطف الإعتيادي عن معناه العلمي الفلسفي . فهو ليس تلك الرعاية والحنان إنما هو قابلية إنتقال الهيجان من شعور إلى شعور .

وبهذا المعنى نفهمه هنا وضمن زاويته نقول إن الفرح والحزن والخوف .. كل ذلك قابل للانتقال والعدوى .

٢) إذا كان الهيجان يسري من شعور إلى شعور فذلك لأن بالإمكان الإعراب عن باطنه بمظاهر الحوادث الفيزيولوجية : كالضحك والبكاء والإصفرار والإحمرار ، وتغيرات الهيئة والحركات وهلم جرا .

٣ - كلما كان الهيجان شديداً ، كلما سرى بسرعة وقوة وهو مايلاحظ في الجماعات : مظاهرات شعبية ، مخاوف حربية ، الخ .

٢ - التقليد إرادي وغير إرادي . فالعطف هو ذلك التقليد اللاإداري الذي يدفعنا إلى تكرار حركات الآخرين وأوضاعهم تكراراً عفوياً غريزياً . نرى الناس يضحكون فنضحك ، نراهم يبكون فنبكي . وقد يملك بعضنا زمامه ولكن الكثير منا ولا سيما الأطفال والإبتدائيين والضعفاء ، يسترسل في التقليد بسهولة .

٣ - يوجد إذن بين العطف والتقليد علاقات مباشرة . فالحركات والأوضاع إنما هي أداة التعبير عن الهيجان . وبهذه الإشارات الخارجية تتصل الهيجانات . ولما كان العطف ينقل الهيجان وينقل معه الحركات والأوضاع ينتج عن ذلك إذا كان صحيحاً أن في العطف منشأ التقليد ومبدأه .

٤ - غير أن جمس لايقبل هذا الترتيب كما رأينا سابقاً . فهو يعكسه فإذا قبلنا نظريته ينتج معنا أن في التقليد منشأ العطف ومبدأه .

٥ - وربما كانت الحوادث تجري هكذا على الأغلب أي : تحدث صورة الحركة فيحدث في النفس ميل إلى تقليدها فتثير الهيجان . وإن كان شأن العطف ظاهراً في جعل الصورة أكثر هيجاناً وأشد قوة ، فإن التفكير والعطف في الأصل حادثتان غير متفارقتين . إذ لا يمكن أن يحدث

الهيجان بدون وساطة الجسد ولا يكون تأويل حركة من حركات الجسد إلا بتقليدها قليلاً أو كثيراً . والخلاصة أن الدراية تستلزم التقليد والعطف كليهما .

٢٨ — كيف يُدرس التقليد في الحياة الاجتماعية ؟ وبأي أشكال أساسية يتجلى ؟ وما هي أهميته وما هي أخطاره ؟ (إكس مرسيليا)	28. Comment s'explique l'imitation dans lavie Sociale ? Sous quelles formes principales se mantifeste-t-elles? quelle en est l'importance quels en sont les dangers ? (Aix - Marseille)

شرح

الإنسان كائن مقلد في الذات . فالطفل يقلد أبويه باكراً والراشد يتكيف مع محيطه كثيراً أو قليلاً . لذلك نرى تشابهاً بين أعضاء الأسرة الواحدة وتشابهاً بين أفراد الوطن الواحد والجيل الواحد . ومن السهل تعداد البراهين الأخرى فها هو ذا مثال اللغة يرينا وحدة في لهجة أفراد كل مقاطعة ووحدة في طرق تعبيرهم ووحدة في مفرداتهم الخاصة .

فالتقليد حادثة لا مجال إلى نكران شمولها ولا سيما أنها تتناول شتى مناحي الحياة . وقد لا ننجو من سيطرة هذا الميل الفطري في الطبيعة البشرية حتى العقول الأكثر إبداعاً .

أهمية التقليد في الحياة البشرية

لاحظ (تارد) هذه الحادثة الهامة العامة واعتبرها عاملاً أساسياً من عوامل الحياة الاجتماعية . فالكائن الاجتماعي يلجأ إلى التقليد أكثر من كل شيء آخر . وقد لا نشك بأن التقليد مدين إلى الاختراع وأن المقلد إنما يقلد المبتكر « وأن سبب التبدلات الاجتماعية راجع إلى ابتكارات فردية يقلدها آلاف الناس فتجدد وجه العالم »(١) غير أن الفكرة الجديدة بعد

(١) ر : بالانت : موجز علم الاجتماع Palante : Précis de Sociologie

أن تلد في شعور فرد سام ، تنتشر موحدة في قلوب سائر الأفراد بفضل التقليد ، تلك القوة الناشرة ·

قوانين التقليد

وينتج من ذلك أن التقليد يسري من الأعلى إلى الأدنى ، وأن الناس يقلدون من كان موضع إعجابهم وكان قوي الشخصية موثوقاً به · كما ينتج أيضاً أن الطفل ، بحكم كونه أدنى ، يقلد أكثر من الراشد ، والابتدائي أكثر من المتمدن ، وذا التفكير البليد أكثر من ذي التفكير الناضج · وأخيراً ينتج أيضاً أن فرد القبيلة وعضو الحزب وواحد الجماعة كلهم يقلد أكثر من المنعزل الذي يتأمل في الأمور الاجتماعية من سمائها ·

أشكال التقليد الأساسية

والتقليد يبدو في الحياة الاجتماعية في ثلاثة أشكال أساسية : ١ً) التقاليد ٢ً) الأزياء والطُرز ٣ً) الآراء والمعتقدات · — فالتقاليد هي مجموعة من العادات والاستعمالات يأخذ بها جميع أفراد البلدة الواحدة والقطر الواحد · — والأزياء والطُرز(١) هي عادات متغيرة بحسب الأزمنة تتناول الثياب والمظاهر الخارجية ، بل هي في إصطلاح علم الاجتماع تتناول غير هذه المظاهر مما هو متحول بتحول الزمان — أما الآراء والمعتقدات فهي مجموعة من الأفكار والأحكام يعتقدها أفراد مجتمع معين فتوجههم جهة معينة · وللآراء والمعتقدات قوة عظيمة بحيث قلما تتحرر منها الأفكار ، بل إن عظماء الرجال أنفسهم يخرون عبيداً أمام الرأي العام ولا شيء يضمن لهم مع ذلك صحته ومعصوميته ·

وفي جميع الأحوال السابقة يجري التقليد إما إرادياً أو غير إرادي ·

---

(١) نستعمل كلمة طَرْز وطِراز (ج طُرز) مرادفة لكلمة mode · أمثلة : ١ً) ثياب على أحدث طرز ٢ً) ثياب من الطراز الأخير · الخ · ·

أهمية التقليد

ومن قوانينه نستدل على أهميته في الحياة الإجتماعية لما لهذه القوانين من نتائج ومفعول في تطور الجماعات. خذ مثالاً أسباب الإنقلابات الإجتماعية. إن هذه الإنقلابات نتيجة لميل الناس إلى تقليد من كان أعلاهم شأناً. ألم تعم الإمتيازات بعد إن كانت منحصرة في طبقة الأشراف؟ ألم تنتقل السيادة من يد الملك إلى يد الشعب؟ وأخيراً ألم تطمح المرأة إلى التساوي مع الرجل لتشترك معه في الإنتخاب؟ — قال تارد « لقد صار الحكم المطلق حكماً شعبياً. وانتقلت الإمتيازات إلى حيز القوانين وانقلب الغصب إلى تبادل حقوقي وانقلب الرق إلى تعاون صناعي، وانقلب الزواج الإبتدائي (المبني على رضاء الزوج وحده) إلى زواج حديث مبني على تراضي الزوجين.. كل ذلك نتائج التقليد على اختلاف أشكاله، كل ذلك نتائجه البطيئة التي لامناص منها ». ويسمي تارد هذا التطور « إنتقالاً من المرحلة الأحادية الجانب إلى مرحلة التساوي المتبادل ».

مثال آخر من نتائج التقليد: التوحد التدريجي في مناحي الحياة الإجتماعية. فقد كانت الألبسة مختلفة كل الإختلاف بين مقاطعة ومقاطعة فإذا بها اليوم أقرب إلى الوحدة. وكذلك الأمر في قضية اختلاف النظريات والمدارس الفلسفية. يقول تارد: إننا مقبلون على عهد توحيد شامل. ألسنا نرى طلائع ذلك في تنازع فكرة الوطن وفكرة الإنسانية؟

أخطار التقليد

على أن التقليد لا يخلو من أخطار. وأخطاره في تتبع الفرد خطى الجماعة وما ينتج عن التتبع من جمود فكري. إن الجماعة توحد الأفراد وبتوحيدها هذا، تطبع الفرد بطابعها الخاص فتهدم بذلك عوامل الإبتكار والتجديد

ونبوغ الفرد. ويظهر أن تارد نفسه يعترف بذلك حين قال « كلما زاد الإتساع والنمو والإتقان في تأسيسات الجماعة ، تقربت هذه الجماعة من الجمود وتباطأت في حركة التمدن والتقدم » .

ولعل أكبر أخطار التقليد في نظرنا هو صيرورة الفرد البشري كالغنمة تسير حيث يسير القطيع . – لاشك أن للحياة الإجتماعية فوائدها ولكن طغيانها قد يميت في الفرد ذكاء عبقريته وصفاء أخلاقه . وهو أمر نلاحظه في اضطرار عظماء الرجال إلى العزلة والإبتعاد عن أذى المجتمع . وهناك قوانين أخرى نفسية تخضع إليها الجماعة في عيشها المشترك . قال غي دوموباسان : يزداد الفكر نمواً ونبوغاً كلما أتيح للفرد أن يكون وحده وفي معزل عن جماعته ، ويزداد ضعفاً وبلادة كلما عاد واختلط وغرق في الحياة الجمعية » .

ولحسن الحظ لن تموت الفردانية لدى الطبائع العالية .

خلاصة

فالمبدع الذي يسبب التقدم البشري (كالفنان والعالم والمخترع ..) هو في عراك دائم مع عصره وبلاده وبيئته . وهو يخالف ما يحيطه من العادات ويثور على الأفكار القديمة المتأصلة في النفوس . لذلك نرى كل حركة تجديدية تنبع من فردية[1] قوية قادرة على منع أفراد

---

(١) نستعمل كلمة « الفرادنية » مرادفة لـ Individualisme . وكلمة « الفردية » مرادفة لـ Individualité . والفرق بين الفردانية والفردية أن الأولى تدل على حالة الفرد ووضعيته النفسية الإجتماعية من حيث عدم خضوعه لسيطرة المجتمع الذي يعيش فيه . أما الثانية أي الفردية فتدل على واحد من الأفراد الذين يتمتعون بالفرادانية .

(المترجم) .

الجماعة من الإسترسال في ظلال الأوضاع القديمة . والنتيجة أن تكييف الشعور الفردي مع الشعور الإجتماعي قانون من قوانين الإحتفاظ والجمود ، ولكن هذا القانون طالما كان في نزاع مع قانون آخر يستهدف الرقي والتقدم ألا وهو قانون « سيطرة الشعور الفردي » الذي يرمي إلى تغيير الوسط الإجتماعي بفضل جهود الفرد . وقد لاشك بأن المجتمع مؤلف من أفراد مقلدين . ولكن بعض الفرديات العالية من حين إلى آخر تقفز هائجة مدفوعة باضطراب نبيل ، معتقدة بقابلية الإصلاح ونوال الأفضل ، فتسعى وتنشر فكرتها الجديدة الخصبة لإصلاح كامل الحياة الإجتماعية أو جزء منها (كالعلم والفن ونحوهما) . تلك هي غاية المبدع الذي بدونه لا يكون ثمة مقلدون .

٤ – الأهواء

٢٩ – الأهواء : تعريفها ، تصنيفها ، كيف تتكون . (كارمون ١٩٣٠)

. . .

٣٠ – خصائص الهوى الرئيسية دراسة علاقاته خصوصاً مع التخيل . (باريز) .

30. Caractères principaux de la passion Etudier prticulièrement les rapports de la passion et de l'imagination. (Paris).

شرح

١ – لاتختلف كلمة هوى في معناها العادي عنها في معناها الفلسفي . فهي تدل على « الميل المتلهب اللاعج » .

وقد ميز (كنت) بين الهوى والهيجان فقال إن الهيجان موقت والهوى يدوم كما أن الهيجان يسهل إثارته في وقت لا يستطاع خلاله بعث أهواء شديدة . مثال ذلك حالة الطفل خلال طفولته .

٢ إن الهوى منبع الهيجانات ولكنها لا يجوز اعتباره مجموعاً منها . وقد لانشك بأن الهوى والهيجان من طبيعة واحدة في الأصل على اعتبار كل منهما ميلاً ، غير أن الهوى يختلف عن الهيجان في بعض الخصائص التي نحن جادون في ذكرها .

فالهوى أولاً يتصف بالسيطرة على النفس سيطرة شديدة . وهو يستولي على القلب ويستفز المشاعر ويعصف بالمرء عصفاً . وبهذا الاعتبار هو قوة جارفة تجر وراءها ماتجر .

والهوى ثانياً وخصوصاً يتصف بالحصر . بمعنى أنه يحصر جميع فاعلية

الإنسان ويستنفدها لمصلحة الهوى . قال ريبو « الهوى في الحياة الإنفعالية أشبه بالفكرة الثابتة في الحياة الفكرية » . وإذا غاب موضوع الهوى سرعان ما يحدث في النفس فراغ عظيم . قال لامرتين مخاطباً الطبيعة حال غياب عشيقته عنها : « إن غيبة مخلوق واحد من ربوعك جعل عامرك خراباً وأنسك وحشة » [1] وقال راسين أيضاً « في الشرق الخالي كم كان مللي ! » .

والنتيجة أن خصائص الهوى تتلخص في تمركز الحياة النفسية حول موضوع الهوى وتوجيه الفاعلية نحو غاية الهوى وتبديل الكائن الإنساني تبديلاً يتفق مع تحقيق هذه الغاية . فالعاشق لايفكر إلا بمن يحب والبخيل لايفكر إلا بالذهب والطامع لايفكر إلا بوسائل تحقيق طمعه والمدمن لايفكر إلا بالخمر .

٢ - وإذا كانت هذه صفات الأهواء عامة وأنها تتشبه كثيراً أو قليلاً بالفكرة الثابتة وأن موضوعها يأخذ بمجامع القلب فإن بعض الأهواء يختلف عن بعض .

فهناك أهواء سافلة تتلف صاحبها وتضعف روحه وعقله وتجعله أشبه باللعبة أسيراً كالآلة يسيرها الهوى . ومثال ذلك الأهواء الإحساسية [2] كالسكر والفجور وتناول المخدرات .

وهناك أهواء سامية ترفع صاحبها وتشحذ ذكاءه وتبعث في إرادته الهمة والإندفاع وتكون سبباً لما نراه من آثار كبار المفكرين وعظماء

---

(١) أنظر كتاب رفائيل ترجمة أحمد حسن الزيات ص ٢٦٣

(٢) نطلق كلمة إحساسي مرادفة إلى sensuel وكلمة حسي مرادفة إلى sensoriel .

الرجال . ومثال ذلك الأهواء التي تبرز فيها ناحية فكرية كالفن الذي يخلص إليه صاحبه حباً بفنه والدين الذي يخلص إليه المؤمن القديس حباً بالخالق .

أما الحب المعروف فيبدو هنا من الأهواء المختلطة التي تحوي الناحيتين الإحساسية والفكرية . أي أنه يجوز أن يؤدي إلى شر أو خير ، ويجوز أن يحط بصاحبه أو يرفعه ويجوز أن يضيعه أو ينقذه .

٣ — ولما كان الهوى ميلاً لاعجاً فينبغي أن نعرف كيف يتحول الميل إلى الهوى .

إن عوامل هذا التحويل عديدة منها الإقليم ومنها الوسط الأخلاقي ومنها المزاج ومنها العادة . ويأتي التخيل باتفاق علماء النفس جميعهم من العوامل الأساسية ولا سيما في تنمية الهوى . فالتخيل يحلي موضوع الهوى المرغوب ويزينه بجميع المغويات ويكسبه قيمة لانهائية . وقد أطلق ستندل على عمل التمثيل هذا الخلاب اسم « التبلور » لما فيه من إغراء يخفي العيوب ليبرز المحاسن ويجعل من القبيح حسناً . قال موليير : « في الشيء المحبوب يبدو لنا كل مافيه جميلاً »[1] .

ويؤثر التخيل تأثيراً آخر أيضاً . إذ بإبقائه صورة المحبوب في الذهن ، يغذي الهوى ويديمه ويبقي الأمل وينفس الكروب ويملأ فواصل الإنقطاع ويجعل من الصورة فكرة ثابتة جذابة خلابة كالكوكب الذي ينقفاه

(١) لاييئس القارىء أننا نترجم . ولو كنا نؤلف إذن لأتينا بأشعار عربية في هذا الموضوع ولا سيما أن الشعراء العرب قد أجادوا في تحليل الأهواء وبيان علاقاتها بالحياة الفكرية والحياة الفاعلة . فليفتح الطالب صفحات أدبه العربي وليقرأ فيه ماهو أغنى من شعر موليير هذا أو راسين ذاك .

المرّاف . قال الشاعر : « أمشي وأحيا بالخيال اللامع » .

والخلاصة إن ذا الهوى خيالي دائماً ، وذا القلب المتلهب غني الخيال وأن الخيال الجدب والهوى الخصب لا يجتمعان .

. . .

٣١ - الهيجان والهوى (ستراسبورغ ١٩٢٨) .

. . .

٣ فسر فكرة شمفور الآتية : جميع الأهواء هي حالات متطرفة وليس الهوى إلا في المبالغة . (الجزائر ١٩٢٠) .

٣٣ — هل نحن مسؤولون عن أهوائنا ؟

33. Sommes-nous responsables de nos Passions ?

شرح

كثيراً مايشار إلى تساهل الحاكم في الحكم على فاعلي الجرائم العاطفية التي سببها الهوى . فالهوى يظهر كأنه سبب مخفف للمسؤولية وبادرة من بوادر القضاء والقدر تجعل الناظر إلى القضية ينظر بعين الرحمة إن لم يكن بعين العطف .

١ - رأي الجبريين

والحجج التي يدلي بها القائلون بالقضاء والقدر لا تخلو من قوة الإقناع والتأثير .

أ) المزاج

فهم يأتون بملاحظات علم النفس في أن أهم أسباب تشكل الهوى هو المزاج فهناك أمزجة شهوانية سريعة الغضب متلهبة عفوية . ومثالها « ميرابو » الذي كان من طبيعه حادة مشتعلة مستعداً بفطرته لأهواء شديدة . ولما كان المزاج يولد مع الإنسان بالفطرة وتولد معه ميوله المختلفة واستعداداته العضوية فهذا يدلنا على أن الامر منوط بالقضاء والقدر .

ب) الوراثة

ثم يأتون بأمثلة الوراثة التي تعد سبباً من أسباب تشكل الهوى . فهناك أهواء وراثية يرثها الطفل من آبائه كالميل إلى شرب الخمر وإدمانه . قال أوغوست كونت « المرء مصب أحياء عاشوا قبله » بمعنى أنه أشبه بمصب النهر الذي تلتقي فيه عدة فروع وكل فرع يأتي بمائه ليمزجه مع ماء الفرع الآخر . لهذا نرى على الأغلب ميولاً وأذواقاً وطباعاً أتت عن الأجداد . ونلاحظ ذلك فيمن حولنا وفي أنفسنا .

ج) طغيان الهوى إذا بلغ حده الأعظم

وإذا تأصل الهوى وبعث جذوره إلى أعماق نفس الفرد ، وبلغ حده الأعظم ، يكتسب قوة عظيمة لا تُقاوم . خذ اللاعب مثالاً والعاشق والبخيل والطامع .. هؤلاء كلهم عبيد لأهوائهم . وقد يأخذك العجب إذ ترى « هرباغون » يصلح عيوبه أو ترى المدمن يرجع إلى الاعتدال .

٢ - الإجابة على الحجج السابقة

تلك هي حجج الجبريين . غير أنها لا تكفي لاستنتاج عدم مسؤولية ذوي الهوى .

فإذا لم نبالغ مع بعض الأطباء في قولنا إن الإنسان بإمكانه تغيير مزاجه بإتخاذه تدبيرات خاصة ، نقول على الأقل يتاح له الإستفادة من مزاياه باستخدامها واستعمالها ويتاح له اجتناب مساوئه بتركها وإهمالها . ولدينا أمثلة لامعة تبرهن لنا كيف تسيطر إرادة الإنسان على مزاجه . فسقراط وُلد إحساسياً شهوانياً كما اعترف هو بنفسه وإذا به يصبح مثلاً أعلى للحكمة والإعتدال . وكذلك فرانسوا القديس ولد ومعه إستعدادات لسرعة الغضب وإذا به يمسي ألطف القديسين .

أما قضية الوراثة النفسية فلم يصل علماء النفس بعد إلى إثباتها بيقين تام . وما يُنسب إلى الوراثة قد يكون نتيجة التربية على الأغلب وتأثير الوسط الذي يعيش فيه الفرد طفلاً وشاباً . مع ذلك نعترف بأن الوراثة تؤلف جزءاً من المزاج على اعتبار أن الإنسان قد يولد ومعه بعض الاستعدادات الفطرية . إلا أن اعترافنا هذا لا يجعل كل المزاج وراثة . فالمزاج حصيلة عوامل منها العادات ، والعادات في أول أمرها إرادية . وليس الهوى كما يظهر إلاّ عادة من العادات العاطفية .

٣ – هل يولد الهوى رغم أنفسنا ؟

ونقطة الخلاف التي تستحق الاهتمام في المناقشة هي مسألة ولادة الهوى . فهل يولد فينا رغم أنفسنا كما يريدون أن يقولوا ؟

– لقد أجاب الأخلاقيون جميعهم بأن الهوى إذا تم وتأصل كانت جميع أفعاله الناتجة عنه رغمية ولكنهم يرجعون مسؤولية الإنسان إلى الأصل . فهو مسؤول لأنه ترك الهوى ينمو ويترعرع وتركه يهيمن ويطغى ولم يقتله منذ ولادته . فالهوى في أول أمره يرضخ بسهولة ويُستولى عليه . وهو أشبه بالعادة يغذيه الفعل الأول ويقويه الفعل الثاني وهكذا يقوى بالتدريج . فعلينا إذن أن نراقب ميولنا . والطفل لا يولد مدخناً أو سكيراً بل الرجل يمسي مدخناً ويمسي سكيراً . بمعنى أن الاكتساب يكون بالعادة[1] . والميول الفطرية في الإنسان إنما هي الميول الأساسية أما الهوى

(١) قد يتعود الطفل في طفولته بعض العادات التي تسيطر عليه في كهولته لذلك يعتبر المربون أنفسهم مسؤولين عن ترك الطفل وشأنه . ولولا إمكان تكييف الطفل لما اشتغل المربون ولبطلت التربية . – والتوسع في هذا البحث موضوع آخر نكتفي بالإشارة إليه فقط .

فهو مكتسب ويكتسب كباقي المكتسبات بالقبول ورضى الارادة .

بقي إعتراض واحد وهو أن ثمة أهواء كالعواصف تصيب الإنسان فجأة :
فنقول إن هذه العواصف نادرة الوقوع ، يصعب علينا الإتيان بأمثلة كثيرة عنها وقد يكون الحب احيانًا من هذ النوع غير أنه ليس كافيًا لإثبات نظرية علمية كهذه . والروايات شيء والواقع شيء آخر . أما الحالة العامة فإن انقلاب الميل إلى هوى يكون تدريجيًا .

٤ — وسائلنا في محاربة الهوى

ولمحاربة الهوى وسائل أبسطها الحؤول دون ولادته . وقديمًا قال الأخلاقيون « قاوم منذ البدء » .

ثم ثاني وسائل المحاربة إضعاف نفوذه . وبإمكاننا ذلك حتى ولو نبت فينا فجأة . وإضعاف نفوذه يكون تارة بإهمال الإنتباه إليه وتارة بالإعتناء في أهواء أسمى منه تحل محله وتارة بمنع حدوث التبلور الذي ذكره ستندل . وهي نقطة هامة توحي إلينا اجتناب الأحلام الكاذبة والزهد بالروايات الخيالية واحتقار الأمثلة التي تسبب التقليد والعدوى الضارة . والنتيجة أن في القضية طبًا أخلاقيًا لا تُنكر قيمته لا ينكر مفعوله . والوسيلة الأكيدة أبدًا في امتلاك النفس وسيادتها هي اليقظة و لإحتراس .

. . .

٣٤ — كانت آخر كلمة وجهها سان‌سيمون إلى تلاميذه هي : « تذكروا دائمًا أن إجراء عمل ما ذي شأن يستلزم أن يكون صاحبه ذا هوى » . مارأيك في هذه الكلمة ؟ (ليل ١٩٣٣) .

انتهى الكتاب الأول في الحياة الانفعالية
ويليه الكتاب الثاني في الحياة العاقلة

تصحيح أخطاء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١١	٧	m'	n'
١٣	١	هذه وفي	وفي هذه
١٣	٤	لذي	الذين
١٤	٧	et la	et de la
١٥	٤	peut	Peut
٣٣	٦	st	est
٣٦	٥	بنوعيهما	بنوعيها
٤٧	١٢	التمثيل	التخيل
٤٨	١٣	الحج	الحجج

٢ - الحياة العاقلة

١ - الفكر وخصائصه العامة

الفكر والحاسية

٣٥ - مقارنة بين الحاسية (١) والفكر

36- Comparer la sensibilité et l'intelligence

متن

١ - الحاسية حالة من أحوال النفس داخلية منوطة بشخص معين. فاللذة والالم والفرح والحزن كل ذلك تحولات منحصرة في الشخص الذي تحدث فيه. ولعل الحاسية هي الشيء الشخصي الاكثر فردية وخصوصية في نفس كل فرد. مع أن الفكر هو حالة موضوعية لاشخصية ولا غرضية. فالفكر انما هو تصوير الظاهر وبواسطته تتمثل النفس أشياء العالم الخارجي وتدرك حقائقه.

٢ - ولقد قيل ان لكل امرئ ذوقه ولونه. ذلك لاختلاف الحاسية بين الناس فقد يحب زيد ما لايحب عمرو أما الحقائق الموضوعية فتفرض نفسها فرضاً على زيد وعمرو وسواهما. أرأيت كيف اتفق المفكرون على أن زوايا المثلث قائمتان وفي قولهم ان المعادن تتمدد بالحرارة؟ هذه حقائق لسنا في قبولها أو رفضها أحراراً.

---

(١) رأينا استعمال كلمة « الحاسية » أخف وقعاً على السمع من كلمة « الحساسية » وأدق لغة

٣ ـ ومن الفوارق التي أرادوا تمييز الفكر بها عن الحاسية أن هذه سلبية قابلة · وذاك ايجابي فاعل · غير أن هذا التمييز خاطيء · وقد لا نشك بان اللذة والهيجان يرافق شعورهما تأثر وانطباع وخضوع ولكن « ميلاً » يدفعنا الى التماس اللذة تارة والهرب من الالم تارة أخرى · وبتعبير آخر تمتزج الحاسية بالحياة الفاعلة من ميول وغرائز بحيث اذا تحققت هذه الميول والغرائز أو لم تتحقق ، حدثت اللذة أو الالم · فالنفس في هذه العمليات فاعلة على كل حال وان اختلفت درجة فاعليتها ·

٤ ـ الحاسية تستيقظ في الطفل باكراً والفكر لايظهر الا متأخراً ·

٥ ـ توجد الحاسية في الحيوان والانسان كليهما · والفكر يختص به الانسان ·

٦ ـ تظهر قابلية التقدم والنمو في الفكر أكثر منها في الحاسية ·

٧ ـ على أن هذه الفوارق بين الحاسية والفكر لاتمنع أن يكون بينهما علاقات متينة فالفكر في الحالة العامة يعمل على انماء الحاسية واغنائها · وليس لنا أدل على ذلك من المقارنة بين الحاسية في الرجل المتمدن وبينها في الرجل الابتدائي أو الطفل أو الحيوان ·

والحاسية تؤثر في الفكر أيضاً · فهناك عوامل انفعالية تعمل على تداعي الافكار وتثبيت الذكريات وتقوية الانتباه · الا أن الفكر أحياناً قد يغش القلب ويخاتله ·

...

٣٦ ـ هل للعواطف شأنها في بناء التفكير الشخصي ؟ (ليل ١٩٢٤) ·

...

٣٧ ـ يظهر أن علم النفس يقبل أولية الحياة الانفعالية وأنها أساس الحياة الفكرية · ما هي التجارب التي تستند اليها مثل هذه الاراء ؟ (رمن ١٩٢٨)

...

٣٨ ـ قال صوري : « ترجع الحياة الفكرية الى أصل انفعالي » · مارأيك في هذا القول ؟ (ستراسبورغ ١٩٣٠) ·

٢ - الاحساسات

٣٩ — شأن الاحساس في الحياة الفكرية ·

39- Role de la sensation dans la vie intellectuelle.

متن

١ - الاحساس هو حالة شعورية أساسها تأثرات عضوية · وتحتوي على عنصر انفعالي من حيث قابلية كونها « ملائمة » أو « غير ملائمة » كما أنها تحتوي على عنصر ذهني من حيث اعتبارها مواد أولية « للمعرفة » وهي بهذا الاعتبار تلعب دورها في الحياة الفكرية ·

٢ - وقد يبالغ التجريبيون في اعتبار هذه الاهمية وخصوصاً كونديلاك الذي يرى « الفكرة » مؤلفة من مجموعة « احساسات » فقط · وينتج عن نظريتهم مايلي:

١) التأمل هو احساس يحس نفسه أي يشعر بأنه احساس ·

٢) الانتباه هو احساس مسيطر انحصاري ·

٣) الذاكرة هي انتباه الى احساس حدث سابقاً ·

٤) الحكم هو ربط احساسين ·

٥) المحاكمة ربط أحكام · ولما كان « العلم » ربط محاكمات · فهو بالنتيجة جمع احساسات ·

٣ - قد لاننكر أهمية النظرية السابقة لاعترافها باهمية الاحساس في تكوين المعرفة · ولكننا لانستطيع الاسترسال في قبول أن الفكر انما هو مجرد آلة مسجلة لاقطة · فان كان الاحساس يؤلف المادة الاولية للمعرفة ولا يمكن للفكر أن يمارس فاعليته بدونه ، فللفكر على كل حال « فاعليته » وهي التي تعمل على « تركيب » الاحساسات وبدونها لا يكون للاحساسات معنى ولا تأويل ·

٤ - هل يجوز التوفيق بين هذين الحكمين : ١) الاحساس قابل للقياس ٢) الاحساس كيفي محض ؟ (الاسكندرية ١٩٣٢) ·

٤١ ـ ما هو شأن التحسس (١) في حياة الانسان (باريز) .

41- quelle rôle la cénesthésie joue-t-elle dans la vie humaine? (Paris).

شرح

تعريف التحسس

يضع علم النفس الحديث في زمرة «التحسس» cénesthésie جميع الاحساسات التي تتصف بكونها تطلع الانسان على حياته الداخلية العضوية . فالتحسس كما قال (ريشه) هو « الاحساس بوجودنا» أي الاحساس بكون أحدنا موجود يشعر بنفسه وبوجوده . وقال كونديلاك في هذا المعنى : التحسس « شعور عام أساسي يدل على كياننا ووجودنا » وقال ريبو أيضاً « انه الشعور المعقد المختلط الذي نرى به حياتنا العضوية » وأخيراً قال غوبلو تعريفه الدقيق في كتابه (المقورات الفلسفية) : « انه ليس ذلك الاحساس الداخلي الواحد المنفرد بل هو مجموعة احساسات يتألف من اتحادها شعور مشترك بواسطته نطلع على كياننا كوحدة عضوية ونشعر أن أحدنا عبارة عن فرد مستقل يحيا « حياة معقدة متمركزة » . والحق أن التحسس يشعرنا بانفسنا أكثر مما يعرّفنا بانفسنا .

خاصته الانفعالية واستمراره وكونه تحت الشعور

وجملة هذه الاحساسات الغامضة المختلطة تظهر انفعالية أكثر منها فكرية . وحين تبلغ درجة من الشدة تبدو اما بشعور ارتياح عام أو بشعور توعك عام . وعلى كل حال تتصف بالاستمرار وعدم الانقطاع . وهي حصيلة عناصر عديدة واحساسات مختلفة يتصل بعضها بالجهاز الهضمي وحالة الغذاء وبعضها بالدوران وبعضها بحالة العضلات وهلم جرّا .

---

(١) يترجم بعض المؤلفين كلمة cénesthésie بكلمتي «الحساسية العامة» وقد رجحنا كلمة « التحسس العام » ثم اقتصرنا على كلمة واحدة هي « التحسس » رأيناها تدل على المعنى المقصود اختصاراً .

أهمية التحسس

١) في الحياة الانفعالية

يؤثر التحسس في حياتنا الانفعالية تأثيراً كبيراً قلما ينتبه اليه . ألا نرى تغيرات العضوية يتبعها تغيرات الحاسية ؟ إن ازدياد الفاعلية الحيوية يخلق فينا حساً ملائماً وعاطفة لذيذة . ونقصانها يسبب فينا حساً قلقا وعاطفة مزعجة . واذ كنا نرى الدنيا تارة وردية اللون وأخرى سوداء قاتمة فذلك تبعا لاحوال عضويتنا دون أن يكون هناك فاعل خارجي يعزى اليه تفاؤلنا الموقت أو تشاؤمنا . فللتحسس نصيب كبير في مزاجنا الوقتي . نكون جياعاً فنرى الاشياء بعين ونكون شباعاً فنراها بعين أخرى . وقد نستيقظ يوما فرحين مستبشرين ويوما عابسين قانطين . وفي ذات يوم نشعر بقوة الجبابرة فنمارس أصعب المهات وفي آخر نفقد كل استعداد للممارسة . والفرح والحزن دون أن يكونا أصلا للفاعلية هما حالتان انفعاليتان تؤثران مباشرة على العضوية .

واذا قبلنا نظرية جمس في الهيجان وأن الهيجان يتأتى عن اضطرابات عضوية تسبق حدوثه كحادثة بسكولوجية ، نكون قد عزونا الى التحسس نصيباً أكبر وشأناً أوسع من حيث التأثير على الحياة الانفعالية (ر : الموضوع ١٦)

وفي بعض الامراض النفسية كالوسواس وخشية المرض والملالة وما شابه ذلك يستولي على المريض حس عام يرتدي رداء التعب أو الخوف أو الملل ويؤثر في عضويته فيضعف حاسيته بل يشلها أحيانا . قال أحد الاختصاصيين « ان بعض المرضاء يفقدون الحاسية فلا يعطفون حتى على أقرب الناس اليهم من أب وأم أو ولد . واذا مات عزيز عليهم لا يلتفتون الى الحدث أقل التفاتة ولا يكونون لا يتألمون » . وهناك امراض تبدو فيها طلائع المرض على عكس خصائصه : فالبرلزيا العامة مثلا من خصائصها خور الارادة وفتور العاطفة ولكنها تبدأ على العكس بثوران شديد في العضوية يعقبه ثوران مثله في الحياة النفسية ولا سيما الانفعالية ، ثم ينتهي بالانحطاط .

٢) في تكوّن الشخصية

والتحسس عنصر هام من عناصر الشخصية ، على اعتبار أنه مجموعة الاحساسات الباطنية التي تطلعنا على

مجموع عضويتنا وأنها هي لنا . فهو أساس الشعور « بالانا » العضوية الفيزيولوجية . كما أنه سبب من أسباب اتصاف الشخصية « بالوحدة والهوية » الصفتين الناتجتين عن وحدة العضوية وهويتها . والذي يثبت أن التحسس من مقومات الشخصية وأنه عنصر تأليفي فيها هو أن فساد الاحساسات الداخلية يؤدي الى فساد الشخصية واختلالها . وان لم تكن العضوية كل الشخصية فهي على كل حال جزء متمم لها وركن أساسي .

٣) في المزاج والطبع

والتحسس يؤثر مباشرة في المزاج والطبع . فالمزاج ان هو الا ردود فيزيولوجية نفسانية مرتبط بعضها ببعض ويكتنفها التحسس من كل حدب وصوب بما فيها من تأثرات عصبية وعضلية . والطبع منوط بأحوال المزاج والشخصية المادية كما هو منوط بالشخصية المعنوية . ولكل امرىء طبعه أي لكل امرىء طريقته في الفكر والعاطفة والأعمال الإرادية . فاذا كان تصنيف الطباع متعلقاً بصفات معنوية فهو متعلق أيضاً بصفات عضوية مادية .

٤) في التيار النفسي

وعلاوة على كل ذلك يؤثر التحسس في جميع التيار النفسي . والتيار النفسي كما دعاه جمس ان هو الا استمرار الحوادث النفسية المتصلة اتصالاً لا انفصال فيه . وهو مدين الى استمرار الحياة العضوية ، ذلك الاستمرار الصامت المتصل لا المنفصل . وقد يغشنا الانتباه الذي نوجهه الى حياتنا النفسية فنحسب أنها مؤلفة من حوادث منفصلة يتلو بعضها بعضاً مع أن هذه الحوادث كما قال « لويس به س » ليست الا فصولاً تمثيلية من رواية الشعور مجتزأة سريعاً . فمن خلال هذه الرواية رواية الحياة الداخلية تتراءى لنا مقتطفات تدلنا بفضل التحسس على أن تحت الحياة النفسية وفي أعماقها من بعيد ، حياة عضوية مستمرة بصمت تجعل من كيانها مستنداً للحياة النفسية أشبه بتلك الاحواض العميقة في الوديان البعيدة التي ترتكز عليها أمواج الاصوات الثنائية لتصعد من أسفل الوادي الى أعلى نقاط الجبال .

خلاصة والخلاصة ان مجموعة الاحساسات التي تؤلف التحسس والتي قلما نشعر ونعترف بها تلعب دوراً هاما في الحياة النفسية . واذا كان الانسان ينفذ أعماله باوامر علوية يقررها الفكر في الحياة الشاعرة فكثيراً ما ينفذ أعماله باوامر سفلية يقررها الحس والكائن الغريزي في الحياة اللاشاعرة .

. . .

٤٢ - الحس بالجهد (ليل ١٩٣٢)

. . .

٤٣ - ماهي المعارف التي نحن مدينون بها الى حاسة البصر ؟ (باريز ١٩٣٠)

٣ - الصور

٤٦ — ما هي العلاقات البسكولوجية الكائنة بين الاحساس والصورة (بوردو ١٩٢٦)

44 - Quelles sont, au point de vue psychologique, les relations de la sensations et l'image mentale? (Bordeaux)

شرح

١ — تعريف الصورة

الصورة هي استرجاع الإحساس الى الذهن بعد غياب المؤثر الخارجي الذي سبب الاحساس . وقد وصف (بوسويه) هذه الحادثة في قوله : « اذا غاب عن وجهي الشيء الذي أرى أو خمدت الضجة التي كنت أسمع أو انتهى الشراب الذي كنت أشرب أوانطفأت النار حيث كنت أصطلي . عندئذ أتصور بيني وبين نفسي ذلك الشيء أو لونه وتلك الضجة ولذة الشراب وحرارة النار .. » .

ذلك هو تعريف الصورة وهذا هو موضوعها . ويبدو لنا من التعريف نفسه تشابه الصورة والاحساس وتوافقها . غير أن هذا التشابه لا ينتج توحيد الصورة والاحساس في هوية واحدة . وفيما يلي نحن ذاكرون الاختلاف بعد التشابه .

٢ — تشابه الاحساس والصورة الذهنية

١ً) الصورة والاحساس حادثتان من طبيعة واحدة . وتشابهها يتأتى عن أن عناصر الصورة يقوم بتقديمها الاحساس . وبتعبير آخر ان الاحساسات هي المواد الاولية لبناء الصورة سواء كانت صورة مسترجعة عن طريق التذكر أم كانت صورة مسترجعة عن طريق التخييل . ٢ً) تتشابه الصورة والاحساس أيضاً في كون كليهما مرتبطاً بمجموعة الحياة النفسية ارتباطاً متيناً . والصورة كالاحساس

لاتتمثل في الذهن منفردة بل تظهر مع احساسات شتى ذات علاقات دقيقة،منسجمة وكثيراً ما يرافقها حوادث انفعالية • على أن ذلك لا يحتم أن تكون العاطفة التي أثارتها الصورة هي نفسها التي أثارها الاحساس سابقاً • فتذكر فرح ما قد يكون مؤلما وتذكر ألم ما قد يكون لذيذاً • لهذا ينكر وليم جمس وجود صور انفعالية •

والصورة كالاحساس قد تظهر مرتبطة برغبة أو ميل سواء كانت هي التي أثارت الميل أو كانت هي التي أثارها الميل مرتديا رداء الصورة • وأخيراً الصورة كالاحساس كلاهما قادر على احداث حركات عضوية (مثلا حركة الحواس مع حدوث الصور ، أو حركة الشفتين بما يناسب الالفاظ المسموعة أو تهيج الافراز بما يناسب وصف الحادثة الخ •)

تلك هي مشابهات الصورة والاحساس • أما الفوارق فهي

٣ – فوارقهما

١) كون الاحساس الحالي أغنى مادة من الصورة لان الصورة المسترجعة تنسى بعض احساساتها لبعد العهد • ٢) كون الاحساس أقوى وأعمق في كيان النفس من الصورة التي أمست ضعيفة برجوعها • وقد لاحظ جمس « أننا نتصور الاشياء خالية من المزعجات والآلام التي رافقت حدوثها وهي في حيز الاحساس » • كما أن (تين) برهن على أن الفرق بين الاحساس والصورة ليس فرقا في طبيعة كل منهما بل في درجتهما •

ويؤخذ على الملاحظتين السابقتين أنهما غير كافيتين للتفريق بين الصورة والاحساس فالصورة في بعض الحالات قد تكون غنية كالاحساس • مثال ذلك مايحدث في نفوس الرسامين الذين يسترجعون ما رأوه من المناظر كاملا كأنه أمام أعينهم • وفي بعض أحوال التخيل الشديد يسترجع الخيالي صوراً حية عميقة الاثر في نفسه بقوة الاحساسات وينسبها الى عالمها الخارجي •

والحق أن الذي يفرق بين الاحساس والصورة تفريقاً أساسيا هو كون

الاحساس جزءاً متمماً وعنصراً واحداً من عناصر فكرية معقدة . وهو يلتحق بجملة التجربة الحسية الجارية . أما الصورة فليست مقيدة بهذه الشروط بل قد تخالف معطيات التجربة وظواهر الادراك الحالي . بمعنى أني اذا كنت الان في باريز انظر أمامي فقد يتمثل في خاطري خلاف ما أرى . منظر جميل مثلا بعيد العهد كنت أتأمله في سياحة سابقة .

ثم ان الاحساسات تحدث في نفوسنا رغم أنفنا وتحدث على ما هي . فمهما حاولنا تغييرها تلطيفاً او تشديداً فان ارادتنا فاشلة . أما الصور فبالامكان ردها وبالامكان ابقاؤها واغناؤها . ونحن غالباً ما نتصور ونتصور كما نريد . ولا غبار على هذه الملاحظة الا في كون الاحساس يقدر في الحالة العامة اذا كان شديد الحدوث ، يقدر على حذف الصورة أو مقاومة حدوثها . كما أن غياب المؤثرات الاحساسية يفسح المجال لحدوث الصور . وعلى كل حال يبدو لنا ثبوت الصور أقل قوة من ثبوت الاحساسات وتبقى غير قابلة او قليلة القابلية للتغيير والتحوير .

خلاصة فينقص الصورة اذن صفات أساسية من الصفات التي تجعل الفكر يتفق اتفاقاً عفوياً مع الموضوعية أي الصفات التى تجعله يتمثل العالم الخارجي كما يبدو من الخارج دون تحوير . فينقصها الشدة والضبط والثبوت . ومن السهل تمييز الواقع عن سواه في الحياة النفسية السليمة أما في الحياة المرضية ولا سيما في أمراض الخيال فيصعب ذلك ويصعب ارجاع الصور الى الاعتدال .

. . .

٤٥ — الصورة . طبيعتها . في أي العمليات البسكولوجية تتداخل كثيراً . وما هو شأنها ؟ (غرنوبل ١٩٢٥) .

46 - Le pouvoir moteur des images: son importance en psychologie (Alger 1928)

٤٦ـ سلطان الصورة المحرك : اهميته في علم النفس (الجزائر ١٩٢٨)

متن

١ً – هناك مدرسة من علماء النفس تعتبر الصورة أساساً لجميع الحياة النفسية . فالذاكرة والادراك التجريبي والوظائف الفكرية العالية كل ذلك بنظرهم حالات نفسية مركبة من الصور . والصور المحركة توجه الحركات وحركات النطق خصوصاً . قال (تين) : الفكر مفعمة صور .

٢ – تؤثر الصورة على الجملة العصبية وبالنتيجة على أعضاء الحس وأعضاء الحركة (تجربة شفرول : وهي اذا أمسكت اليد نواساً وتصور الماسك حركة من الحركات تصورا قويا نلاحظ في حركة النواس ما يناسب الحركة المتصورة). فالسلطة المحركة للصورة هي « الميل الى الحركة المنبعثة كاستطاله عن التصور »

٣ ـ أمثلة هذه السلطة : ١ً) الافرازات التي يثيرها سبب نفسي . فابسط فكرة نتصورها عن طعام شهي تكفي لملء الفم لعابا . والاحساس الذي كان يعقبه سابقاً افراز معين يعقب صورته الافراز نفسه . (اذا دق جرس كلما عرضنا الى الكلب لحماً يأكله ثم دق الجرس دون أن يوجد اللحم ، سرعان ما يفرز الكلب لعابه كما لو كان اللحم أمامه) . ٢ً) تصور حرف من الحروف أو مقطع من المقاطع يثير حركة الحرف أو المقطع . مما جعل بعض المفكرين يعتقد أن النطق الداخلي مؤلف من صور محركة . والمؤكد في هذه الناحية أن الصور السمعية هي المرتبطة ارتباطا متينا بما يرافقها من حركات .

٣ً) اذا أغمضنا العينين وأمامنا أشياء معينة وتصورناها بعيدة ، يبقى محور كرتي العين متوازيين واذا تصورناها قريبة أو جانبية يتحدب المحوران أو يميلان الى الجهة المتصورة .

٤ً) السراية الحركية والتقليد والعطف والايحاء بالتنويم ، كل ذلك يفسر بالسلطة المحركة للصور • والايحاء بالتنويم يبرهن أن النفس اذا كانت مشغولة بشاغل فكري وحيد فهذا الشاغل بفضل سلطته المحركة يبدو لنا في فعل • ومثل هذا الفعل يسميه وليم جمس بالفعل الفكري المحرك .Action idéomotrice

٥ً) ولكن الصورة في الحياة الطبيعية السليمة ليس لها مثل هذه السلطة • وهي لا تشغل جميع ساحة الشعور لان تنازع الصور يجعل التمثيلات الفكرية كلها متجهة بانسجام لتتحول الى أفعال • ولاجراء فعل معين تتغلب صورته وتمثيلاته الفكرية على سواها ظافرة فتبرز قوته الدافعة الى التنفيذ •

٤ - الادراك

الامتداد - فكرة الشيء الخارجي .

٤٧ - باي مقياس يجوز القول ان الادراك هو التذكر . (باريز ١٩٢٦) .

47 - Dans quelle mesure est-il vrai de dire que percevoir c'est se souvenir (Paris 1926) .

شرح

١ — الاحساس والادراك يتراءى لكثير من الناس أن كلمتي احساس وادراك مترادفتان . وهذا خطأ . فالادراك هو حادثة نفسية غنية معقدة خلافاً للاحساس الحادثة النقية البسيطة . فالطفل الصغير الذي لا يعي ينظر حوله فلا يؤول تلك الاحساسات التي تؤثر على الطبقة الشبكية من عينه . بينما الراشد يؤول هذه الاحساسات فيدرك . والراشد يدرك أكثر مما يحس بمعنى أنه يؤول الاشياء التي أمامه دائماً ويؤولها مستعيناً بذاكرته فيكسب الاحساس معنى . ولهذا قيل الادراك هو التذكر . وقد لا نشك بهذا القول لانطباقه مع الحقيقة انطباقاً واسعاً ولكنه لا يخلو من نقد كسائر الاقوال العامة المختصرة التي تتناول الحوادث النفسية المعقدة .

٢ — شأن الذاكرة في الادراك قيل مرحلة الادراك مرحلة الحس . فالاحساس يقع تحت الادراك كأساس له . وبالاحساس تتصل ادراكاتنا بالحاضر وبافعالنا وحياتنا . والاحلام والاماني ان هي الا وسائل تلجأ اليها النفس لتصرف الانتباه عن حياتنا وواقعها المؤلم وصعوبة التكيف

مع هذا الواقع . وعلى كل حال فالادراك أكثر من احساس . ويشمل التذكر أولا . لاني اذا سمعت صوت عربة أدرك أن الذي يمر هو عربة . فالاحساس بهذا الصوت يثير معطيات احساسية أخرى كانت دخلت الى نفسي من لون ولمس وسواهما ، بحيث اذا كانت العربة ثقيلة أو خفيفة ، محملة أو فارغة ، مبطئة أو مسرعة ، استطيع أن ادرك ذلك بفضل التداعي والتذكر .

والذي يصحح المطبوعات لابد أن تفر عن مرآه بعض الخطيئات التي لا يراها وهو يتابع قراءة الاسطر ، كما أن القارئ اذ يفهم لا يقرأ جميع الكلمات الموسومة في الصفحة . ففي كلا الحالين تعمل الذاكرة مع الاحساس لانجاز الادراك . وقد جرب (غولد شيدر) في بعض الافراد فرأى أن الفرد يستطيع قراءة الجملة بثانية واحدة ولا يستطيع في ثانية مثلها قراءة كلمتين أو ثلاث منفصلات بدون رابط . فالادراك يضيف الى الاحساس صوراً وذكريات سبق لها أن ضمت الى تجاربنا الذهنية القديمة . والشيء المعقد الذي هو موضوع النظر يسمى بالشيء الخارجي objet .

٣ ـ عمليات أخرى يضمها الادراك

١) ويلاحظ (روستان) بحق أن الادراك اذا كان أكثر من احساس فانه من جهة أخرى لا يحتوي جميع المعطيات الحسية التي تقدمها المؤثرات الخارجية . وذلك بفضل « الانتباه » الذي يضيق ساحة الشعور . فالذي « يدرك » انما يحصر انتباهه بناحية واحدة هي التي تفيده ، فينتخبها دون غيرها . ومن هذه الناحية نفسها لا ينتخب الا ما يهمه . ونلاحظ في رسوم الاطفال أن الطفل لا يرسم جميع ما يرى بل يرسم ما يعرف عن الشيء أو ما يهتم به . فالادراك بهذا المعنى يسمى «ماقبل الادراك» Prépercevoir أي أننا ندرك بادراكاتنا السابقة قبل أن ندرك بادراكاتنا المقبلة .

٢) ويحتوي الادراك عدا الصور والذكريات « أفكاراً عامة » idées فالادراك هو «تأويل» أيضاً . وهذا التأويل يضم الشيء المدرك في صنفه وينسبه

الى نوعه ويدل عليه باسمه . وهو يحتوي على عمليات ذهنية من تجريد وتعميم لا مجال الى نكران أهميتها .

٤ نتيجة — والنتيجة أن الادراكات التي نسميها « ادراكات مكتسبة » ليست في الواقع احساسات محضة بل هي صور وذكريات وادراكات وأفكار عامة ومعرفات سابقة أثارها الاحساس الحاضر فألف مجموعها الادراك الطبيعي . وتربية الحواس تستهدف اثارة المدركات المكتسبة أكثر مما تستهدف اثارة المدركات الطبيعية . ومعنى ذلك أنها تبتغي من معطيات حسية معينة استرجاع معطيات حسية أخرى ومن نوع آخر حدثت مع الاولى . وهذه التربية تحتاج الى تنمية الانتباه وجعل الادراك راشداً . وليس التوسع في هذا البحث من شأن علم النفس ولكن ذكره يفيدنا في بيان كيف تستنتج التربية من علم النفس تطبيقاتها العملية . وقصارى القول ان الادراك الذي يراه العامة كعملية بسيطة هو عند علماء النفس عملية معقدة كل التعقيد .

...

٤٨ ـ عرف هذه الاصطلاحات الثلاثة وبين ماذا يوجد بينها من علاقات : إحساس ، إدراك ، صورة . (بوردو ١٩٣٠) .

...

٤٩ ـ مامعنى قولنا « إدراك مكتسب » . (الجزائر ١٩٢٨) .

...

٥٠ ـ قال أحد الفلاسفة المعاصرين : « نتساءل فيما اذا كان التفكير يضيف شيئاً الى الادراك ولا نلاحظ أن ما نسميه ادراكا هو في الواقع أكثره من صنع التفكير » . افحص هذا القول . (بوردو ١٩٣٣) .

...

٥١ ـ هل ادراك المكان هو من معطيات الشعور المباشرة ام انه يتألف تدريجاً (باريز ١٩٢٥) .

51- La perception de l'espace est-elle une donnée immédiate de la conscience ou se construit-elle progressivement ? (Paris 1925)

شرح

١ ـ النظرية الولادية والنظرية التجريبية

يختلف علماء النفس في تبيان منشأ ادراك المكان . فأصحاب النظرية الولادية **nativistes** يعتقدون أن الاحساس يتصف منذ ولادته وحدوثه في النفس ، بصفات الامتداد . وبتعبير آخر يعتقدون أن من صفات الاحساس الفطرية تصوير فكرة الامتداد في ذهن الانسان . أما أصحاب النظرية التجريبية **empiriques** فيعتقدون أن الامتداد يتصوره الذهن بنتيجة اجتماع جملة احساسات ليست من صفاتها الولادية أصلا تصوير أي امتداد ما . ومن امتحان هاتين النظريتين تبدو لنا صعوبة قبول النظرية التجريبية . فما هو تركيب الجملة الاحساسية التي تصفها لنا هذه الكيمياء الذهنية في سبيل استحصال الامتداد؟ .

٢ ـ فحص النظرية الولادية

فمبدأ النظرية الولادية يبدو لنا أكثر إحكاما . وفيما يلي نمر على أهم آرائها . منها نظرية لاشليه القائلة ان الاحساسات البصرية وحدها تصور الامتداد . ومنها النظرية المدرسية القائلة ان نوعين من الاحساسات يصوران الامتداد هما الاحساسات البصرية والاحساسات اللمسية . ومنها نظرية جمس القائلة ان جميع أنواع الاحساس تتصف بالامتداد وجميعها يتصف بتصوير الحجم **voluminosité** .

فنظرية لاشليه لايدعمها اليوم أحد . وقد استفيد من النظرية المدرسية في معرفة أن نوعي الاحساس البصري واللمسي هما أهم أنواع الاحساس في تصوير الامتداد . بقيت نظرية جمس مع بعض التعديل . ومما أفادته نظرية جمس لفت النظر الى أن هناك احساسات لا بصرية ولا لمسية تساهم في تصوير الامتداد ،

مثلا الاحساسات السمعية . ثم ان التحسس بمجموعه cenesthésie يشعرنا باننا ذوو أجسام ذات امتداد (وبتعبير علمي ذات حجم تكعيبي) .

واعترافنا بوجود احساسات ذات امتداد ، معناه أن تصوير المكان في اذهاننا منوط بشيء مباشر ابتدائي يحدث في نفوسنا رأسا مع حدوث الاحساس ، وهذا الاعتراف في صالح النظرية الولادية .

٣ ـ ماذا تفيدنا النظرية التجربية

غير أننا لانستطيع أن نسترسل باتجاه هذه النظرية استرسالا مطلقاً لا اعتدال فيه . فالاجدر أن نكون في حد الاعتدال باتمام هذه النظرية بحقائق النظرية التجربية . وأول ما يعترضنا في صالحها هو أن الطفل لا يستطيع تقدير المسافات والاعماق تقديراً كافياً بمقدار ما يستطيعه الراشد . كما أن الاكمه المولود أعمى لا يستطيع أن يدرك معنى الشلال بدون أن يوجد علاقات ومناسبات بين احساساته اللمسية والاحساسات البصرية . فالتجربة اذن تساهم في عملية الادراك واننا اذ نتعلم تقدير المسافات والمقادير والاشكال والجهات نتعلم ذلك تدريجاً . وهكذا نعدل النظرية الولادية بقولنا نعم اننا ندرك الامتداد ادراكا مباشراً مع حدوث الاحساس لما فيه من اشارات مكانية الا أن هذا الادراك الولادي ادراك غامض يحتاج الى التجربة التدريجية لتكسبه صفات الدقة شيئاً فشيئاً .

٤ ـ الامتداد والمكان

وعلاوة على ما تقدم ينبغي التمييز بين الامتداد المشخص étendue concrète اللامتجانس الكيفي . والامتداد المجرد abstrait المتجانس اللامتناهي . واذا ما اجتزنا مرحلة احساساتنا الامتدادية ، نؤلف ادراك المكان كانه وسط يشمل سائر الأجسام ويحويها . فهذا التأليف التدريجي يحتاج الى « تخيل » واسع يخترق المسافات الى مالانهاية ويتصور أمكنة جديدة بعيدة . كما أنه يحتاج الى « تجريد » قادر يزيل عن الامتداد المشخص صفاته الحسية وينزع عنه مشخصاته ليتصوره نقياً فارغاً لايتصف الا بكونه « مكانيا » purement spatial . ففي ادراك المكان اذن

معطيات ومؤلفات ، فالمعطى donné هو « الامتداد المشخص » وهو من عمل التجربة لانه من عمل الاحساسات التي من صفاتها الامتداد . أما المؤلف construit فهو « المكان المجرد » .

٥ ـ خلاصة

وأخيراً كما قال جمس « ان قصة الادراك المكاني تشرح بناحيتين: من جهة اذا قبلنا بوجود امتداد ولادي من خصائص الاحساس ومن جهة أخرى اذا قبلنا بوجود مقدرة يتمتع بها الشعور في التأليف بين الاحساسات تلك المقدرة على التداعي والتمييز والانتقاء » . وللتجربة في هذا التأليف حصة كبيرة من العمل .

...

٥٢ ـ شروط ادراك المسافة وتقديرها

52 - les conditions de la perception et de l'appréciation de la distance.

متن

١ ـ تتصف الاحساسات وخصوصا الاحساسات البصرية والمسية ، بخاصة الامتداد . ولا مجال الى نكران هذه الصفة في الاحساس لانها من صفاته اللازمة . أما البت في قضية البعد الثالث فأمر يحتاج الى التحفظ .

٢ ـ ادراك المكان

١) الحس اللمسي والحس التحركي يلعبان دورهما في ادراك المسافة . لأن ادراك المسافة الكائنة بيننا وبين شيء معين ، يتم بفضل ماتتصوره من الجهود اللازمة للوصول اليه .

٢) ولقد قيل ان حس البصر أقل شأنا من الحسين السابقين بدليل المثالين التاليين : أ ـ مثال الاكمه المولود أعمى . ب ـ المثال الترسيمي الذي يرينا أن مرتسم الخط المستقيم على العين « نقطة » لاتفيد في معرفة المسافة العمودية على

العين (بركلي) . أما المثال الاول فلبس بالحجة القاطعة . أما المثال الثاني فهو دليل له قيمته في تصور النقاط الهندسية المنعزلة عن الاشياء المشخصة والتي تدخل مرتساتها على عين ثابتة جامدة . ولما كانت العين مجهزة بعضلات وأعصاب تنقلص وتتمدد تبعاً للمسافة وتتكيف بحيث تستطيع تمييز البعد بين نقطتين وادراك التضاريس بما فيها من بروز وانخفاض ، فان المثال الثاني حجة ضعيفة أيضاً .

٣ ـ تقدير المسافة .

ان تقدير المسافة نتيجة التمرين والتربية . ويبدو هنا الحل التكويني génétique جواباً صحيحاً للمسألة .

١) للتحرك شأنه في هذا التقدير . وهو أمر نلاحظه في الفرق الكبير بين خطأ تقدير المسافة الشاقولية وخطأ تقدير المسافة الافقية .

٢) للبصر شأنه أيضاً وفائدته . وهو يعطينا بعض العلائم التي تساعدنا على تقدير المسافة منها : أ ـ عدد الاشياء المتراكمة بعضها وراء بعض . ب ـ اختلاف ظاهر الشيء باختلاف المسافة ، ذلك الاختلاف الناتج عن تراكم الطبقات الجوية كثيرة أو قليلة بما فيها من غبار أو ضباب أو في حالة كونها نقية . حـ ـ صغر الجسم اذا كان بعيداً . د ـ الحركة الظاهرية للجسم البعيد الناتجة عن حركتنا رغم كونه ثابتاً (كالقمر مثلاً) .

٣) للسمع شأنه أيضاً وفائدته . ولكن الاستفادة منه نتيجة لا كتساب متأخر بالنسبة لبكور حاسة البصر .

٤ ـ وهكذا ينبغي التمييز بين ادراك المسافة ، وتقدير المسافة . فالاول هو من المعطيات المباشرة والثاني هو نتيجة التربية والتمرين .

. . .

٥٣ ـ فسر فكرة جان جاك روسو التالية « لاندرك وجود الاشياء الخارجية عنا الا بما نعرفه من حركاتنا ولا ندرك فكرة الامتداد الا بهذه الحركات نفسها » . (ديجون ١٩٣١) .

...

متن

١ ـ المسألة : ماهي وسائلنا المؤدية الى الشعور بالزمان .

٢ ـ ادراك الزمان ادراكا خاما .

ان ادراك الزمان ادراكا أوليا خاما مدين الى معطيات الحواس على اختلافها . ١ً) فحاسة السمع تلعب في هذا الادراك دور حاسة البصر في ادراك المكان (تتابع الاحساسات السمعية بعضها وراء بعض) . ٢ً) للاحساسات التحركية شأنها . لأن المسافة الزمانية تتم بفضل ما نتصوره من الحركات والاوضاع المتتابعة التي تجري خلالها . ٣ً) للتحسس العام شأنه أيضاً بما فيه التتابع الدوري (الشهيق والزفير ، ضربات القلب ، الطعام الدوري ، النوم) .. كل ذلك نقاط ارتكاز توضح المسافة الزمانية وتجعل ادراك الزمان وصوره محسوسا .

٣ ـ ادراك الزمان ادراكا مكتسبا .

يستخلص الفكر من المعطيات الخام الآتية من طريق الحواس احكاما يؤلف بها فكرة الزمان . ١ً) التضاد بين الادراك والصورة . ٢ً) القياس الشخصاني للزمان وضلاله الناتج عن الحوادث الانفعالية المرافقة لمروره . ٣ً) أثر الوظائف الفكرية (الانتباه ، العادة ، التكرار . الخ ..)

٤ ـ يجري تصحيح الادراك الشخصاني للزمان بادراك موضوعي يقيسه بدقة وذلك اما بظواهر اجتماعية (التقاويم والمسميات اليومية والشهرية ..) واما بآلات علمية مبنية على مبدأ الحركة المنتظمة (الساعات ، والادوات المسجلة) .

...

٥٥ ـ الزمان النفساني والزمان العلمي : كيف ننتقل من أحدهما الى الآخر ؟

...

٥٦ — ناقش هذا القول : لا تخدعنا حواسنا بل احكامنا التي نؤلفها بافكار من لدنا • (باريز ١٩٢٨) •

56 - Discuter cette formule : ce ne sont pas nos sens qui nous trompent; ce sont les jugements que nous formons d'après les idées qu'ils ne nous donnent pas. (Paris 1928).

١ ـ تعريف خطأ الحواس يقصد أحيانا من لفظ « خطأ الحواس » المعنى الواسع الذي يشمل جميع أخطاء الادراك بما فيها الاوهام والضلالات • أما المعنى الضيق وهو المعنى الذي نعتبره هنا، فلا يشمل الا الاخطاء المتعلقة بصفة من صفات الشيء • شكله مثلا أو مسافته دون أن يكون ثمة خطأ في طبيعته •

٢ ـ امثلة برج مربع المقطم يبدو من بعيد اسطوانيا • قضيب نصفه في سائل يبدو منكسرا • الشمس تبدو كبيرة في منخفض الافق ثم تبدو كأنها تدور حول الارض • انسان يتحرك يرى المنظر البعيد يتحرك مع كونه ثابتا ، تجربة أرسطو التي توهم واضع الكرة الواحدة بين اصبعيه المتصالبتين كأنه يضع كرتين •

٣ ـ مدار البحث أخطاء التأويل يبدو من الامثلة السابقة أن الخطأ يتأتى عن « التأويل » لان الحواس في ذاتها لاتخطيء ولا تصيب • فما هي الا أدوات ناقلة تصل بين الانسان والعالم الخارجي وما تبقى من المعرفة فيؤلفها الفكر • قال مالبرانش « لاتطلق أبدا أحكاما عن الاشياء كما تراها بحواسك بل الق أحكامك عن علاقاتها مع أحساسنا » فالاحساس انما هو اشارة لخصائص الشيء الخارجية • وهو اشارة غير دقيقة وغير امينة ومن واجب الفكر أن يعرف كيف يؤولها لان الخطأ يدخل عن طريق التأويل • وكان مع الديكارتيين الحق حين قالوا بعدم خطأ الحواس وأن معطيات الحواس تدخل هكذا ولا نستطيع أن تدخل الا هكذا • فنحن الذين نخطيء ونحن الذين نؤول خطأ •

٤ـ أسباب الخطأ في التأويل

وترجع أسباب الخطأ غالباً إلى « أحكامنا » وذلك في عدم ملاحظتنا اختلاف الشروط بين ظرف وآخر (مثلا الوسط الفيزيكيماوي الذي يجتازه النور، الاضاءة، أوضاع الاشياء الخ ٠)

واذا رأينا القضيب في السائل مكسورا فذلك لان مثل هذا الاحساس البصري في شروطه العادية يرافقه احساس لمسي زاوي ٠

ومن جهة أخرى يجوز أن تكون حواسنا نفسها في حالة مرضية غير سليمة فاذا لم تراع أحوالها قد تنسب الى العالم الخارجي شيئاً لا وجود له الا في الحواس خيالا ٠ مثال ذلك المرض الدلتني الذي يؤدي الى الخلط في معرفة الالوان ٠ ويرجع الخطأ في تجربة أرسطو الى أن المؤثرات اللمسية تؤثر بآن واحد على ناحيتين من الاصابع فيخيل لنا وجود جسمين اذ لا تشعر الاصابع في أوضاعها الطبيعية العادية بناحيتين الا من مؤثرين معدودين ٠

وأخيراً قد يخطىء الفكر بأسباب التداعي ٠ فاذا دخلت الى ذهنه معطيات تجربة معينة أمامه فيضيف اليها صور تجارب سابقة لتأليف ادراكات مكتسبة ٠ فهنا مجال للخطأ ولا سيما اذا كانت عملية الادراك سريعة الحدوث أو كانت معقدة وكلما كان التعقيد أكثر كان مجال الخطأ أكبر ٠

٥ـ خلاصة

ولاجتناب الخطأ ينبغي تطابق الحاسة مع موضوعها ومراعاة الشروط المحيطة بحدوث الادراك ومعرفة ما اذا كانت الحاسة سليمة ٠ وينبغي أن لا نطلب من الحواس أكثر مما تستطيع تقديمه لينحصر جهدنا في عملية التأويل الصحيح ٠ وهو أمر منوط بالتجربة وبالفكر خصوصاً ٠ قال شاعر فرنسي :

تعوج بالماء العصا فيقيمها عقلي

٠٠٠

٥٧ ـ يقال في اللغة الدارجة عن الادراكات أن هذه صحيحة وتلك خطأ (ضلال ، وهم ٠٠) ماذا يقصد من ذلك وما هي علائم الصحيح والخاطىء من الادراك (رمن ١٩٢٩) ٠

٥ - الذاكرة

٥٩ - هل الذاكرة الا وظيفة بيولوجية ؟ (باريز) .

...

٦٠ — هل يجوز ارجاع الذاكرة الى العادة (باريز ١٩٣٠)

60 - La mémoire se ramène-t-elle à l'habitude ? (Paris 1930)

شرح

١ - النظرية الفيزيولوجية

يفترض بحث العادة وأمثاله من البحوث فرضية تفسيرية يسهل قبولها لانطباقها مع الواقع . ألا وهي « الميل الذي يدفع الكائن الى تكرار فعل كان أجراه سابقاً ، والرجوع الى أوضاع كان مر بها فيما مضى » . وهذا الميل الذي هو بآن واحد نتيجة تفاعل دماغي بيولوجي وتفاعل ذهني بسكولوجي ، يفسر الذاكرة كما يفسر العادة . والذين يقولون بالنظرية الفيزيولوجية يفسرون الذاكرة وخصوصاً ريبو ، كأنها عادة عضوية في الجملة العصبية ، فالذاكرة والعادة كلتاهما مظهر لذلك الميل الذي يدفع الكائن الى تكرار حدوث الروابط التي جرت بين فكرتين أو حركتين والتي احتفظت بها مراكز دماغية بروابط عضوية .

٢ - الذاكرة والعادة

ونلاحظ أيضاً أن العادة والذاكرة تخضعان لقانون واحد من حيث الاكتساب والاحتفاظ ومن حيث اجراء الوظيفة فكما أن حدوث حالة ذهنية معينة يترك وراءها أثراً يعيش بعدها ويسعى لاحياء ذكرها كذلك يترك حدوث الفعل الاول أثراً بعده يسعى لتكراره ويكسب العضوية استعداداً لهذا التكرار يسهل تنفيذه . وفي كلا الحالين يلعب التكرار دوره والمصلحة هي التي توجه الانتباه الى انتقاء الافكار الملائمة والحركات المفيدة ورجوع الذكرى اذا تكررت تقوى بها الصفة الاحتفاظية كما تقوى العادة بالتمرين .

ثم تتشابه الذاكرة والعادة في أن نتيجة كلتيهما استرجاع الأفكار والحركات استرجاعاً آلياً لاشعورياً ، تلك الافكار والحركات التي تحدث في الاصل بفضل مجهود فكري إرادي . وهذا التشابه في اجراء الوظيفة يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان الذاكرة هي حالة خاصة من العادة فهل يجوز ارجاع الذاكرة الى العادة ؟

٣ ـ التمييز بين نوعي الذاكرة

لقد ميز برغسون بين نوعي الذاكرة . ١) الذاكرة الشبيهة بالعادة ومثالها الذي أتى به هو حفظ درس من الدروس بالتكرار . قال برغسون[١] : « ان هذه الذاكرة تتصف بجميع صفات العادة . فهي كالعادة تكتسب بالتكرار . وهي كالعادة تحتاج الى تجزيء العمل الكلي بادىء الامر ثم تركيبه . وهي كالتمرين العادي تتخزن في مجمع ميكانيكي يحفز وفي جملة مغلقة من الحركات الآلية تتعاقب كما كانت حدثت وبالمسافة الزمنية نفسها » . ٢) الذاكرة بمعناها الاصلي . أي الذاكرة كصورة souvenir-image. وهي ذكرى انطباع الحادثة لمرة الاولى وفي مثالنا السابق ذكرى قراءتي الاولى للدرس مع عرفان زمانها ومكانها . قال برغسون : ان هذه الذاكرة بعيدة الشبه عن العادة . وانطباع الصورة حدث منذ أول وهلة . أما القراءات المتكررة بعد القراءة الاولى فكل واحدة لها ذكرى خاصة بها وتختلف عن سابقتها ولاحقتها . والاولى أشبه بالحادثة الوحيدة التي نمر بها في حياتنا مرة واحدة والتي من صفاتها الجوهرية أن لها تاريخاً معيناً ولا يتاح لها الرجوع مطلقاً » .

٤ ـ خلاصة

يتضح مما سبق أن الذاكرة الميكانيكية المؤسسة على التكرار يمكن ارجاعها الى العادة . أما الذاكرة التي يتصورها الفكر والانتباه فهي ذاكرة . وقد لانشك بان الذاكرة والعادة يشتركان في مبدأ واحد . هو خاصة الاحتفاظ والاسترجاع . غير أن هذا الاشتراك لايجعل من الذاكرة عادة ـ ولعله يجعل من العادة ذاكرة على اعتبار العادة ذاكرة حركية . والافضل أن نميز بينهما فنقول ان الذاكرة بمعناها الاصلي « استرجاع حالة سابقة معروفة بزمانها ومكانها وهيئتها وخواصها هي هي » .

---

(١) برغسون Bergson : Matière et Mémoire. P. 76 .

61 - quelles sont les conditions favorables à la fixation et à la conservation des souvenirs (Paris 1925).

٦١ — ماهي الشروط الصالحة لتثبيت الذكريات وحفظها (باريز ١٩٢٥).

متن

١ ـ الذاكرة هي المقدرة على الاحتفاظ بما حدث من الحالات الشعورية واسترجاعه مع الاعتراف بحدوثه السابق وكيف حدث . ولكي يسترجع الفكر ذكرى ينبغي أولا أن يكون قد عرفها فيما مضى ثم ينبغي أن تثبت هذه المعرفة وتحفظ في الذهن لتكون قابلة الاسترجاع .

٢ ـ شروط التثبت

التثبت على نوعين : عفوي وارادي . والارادي هو المهم وهو مدار البحث الذي يوحي الينا معرفة شتى العوامل الصالحة للتثبيت . ونذكر فيما يلي الرئيسي منها : ١ً) جهد الانتباه . ٢ً) المصلحة (ريبو) . ٣ً) العوامل الانفعالية (من هيجان وميول) . ٤ً) الروابط المنطقية . ٥ً) التكرار .

٣ ـ شروط الاحتفاظ

الاحتفاظ على نوعين . ١ً) احتفاظ ميكانيكي تحركي مبني على العضوية (الذاكرة كمادة)٢ً) احتفاظ بسكولوجي لاشعوري (الذاكرة كصورة ـ برغسون) .

ونلاحظ أن الذاكرة لاتجري عملية الاحتفاظ باتتابع الشامي **intégralement** بل يطرأ على الذكريات تحوير وثلمات مع قدم العهد . (انظر الموضوع ٦٦)

٤ ـ نتائج عملية

للذاكرة وظيفة كبيرة الاهمية . وهي جديرة بالاعتناء والتربية . والغاية من تربيتها تقوية قابلية الكسب وقابلية الاحتفاظ . وقد عدد « بينه » الطرائق الآتية : ١ً) الانتباه اثناء التكرار ٢ً) التكرار في أوقات منفصلة خير من تكرار طويل يدوم المدة نفسها . ٣ً) اتباع الطريقة المحيطية خير من اتباع

الطريقة التجزيئية . ٤) الذاكرة السليمة في الجسم السليم ، والاعتناء بالصحة شرط اساسي من شروط الاعتناء بالذاكرة .

...

٦٢ — ما هو النسيان وما هو شانه في الحياة النفسية (باريز ١٩٣٤)

62 - qu'est-ce qu'oublier? quelle est l'importance de l'oubli dans la vie psychologique? (Paris 1934)

شرح

١ ـ تعريف النسيان اذا حدثت حالة بسكولوجية في وقت ثم أمكن استرجاعها في وقت آخر سميت العملية تذكراً . أما اذا عسر استرجاعها رغم جهود مبذولة فيقال للحادثة نسيان . وهو عجز الشعور في وقت من الاوقات عن احياء ذكرى مندثرة . وهو عجز قد لا يحصل في وقت آخر

٢ ـ نسبية النسيان وبهذا المعنى هو نسبي لا مطلق . لاننا نستطيع أن نسترجع الذكرى المنسية في وقت غير الوقت الذي حدث خلاله النسيان . وفضلا عن ذلك قد تثبت الذكرى أنها موجودة وهي في حيز النسيان ويحصل اثبات وجودها هذا بمظاهر انفعالية يشعر بها المتذكر حين يحاول التذكر وهو يقول : الكلمة على رأس لساني . وفي بعض الامراض النفسية (ايمنزيا) يشعر الفرد شعوراً عميقا بان ماضيه موجود ويحفز حفزاً قويا لاسترجاع حوادثه لكنه يراها محاطة بظلمات النسيان . وقد نظن عدداً كبيرا من الذكريات منسيا واذا به في قيد الوجود .

٣ ـ نظرية برغسون وينفي برغسون صفة الاطلاق عن النسيان ويقول انه ليس أبديا . فاذا تحررنا من ضرورات العمل والحياة وعشنا في رغد وراحة بال منعزلين حالمين فان ذكرياتنا تتوارد واحدة بعد واحدة .

قال برغسون: « اذا أحيا المرء وجوده الماضي بدلا من متابعة حاضره وحل في ذلك الماضي مدة معينة سرعان ماتبدو أمام عينيه حوادث تاريخه مفصلة على كثرتها».

الا أن ضرورات العمل والحياة تمنعه الا من متابعة الحاضر فيقتصر على انتقاء بعض الذكريات اللازمة المفيدة دون غيرها.

٤ ـ أسباب النسيان فالسبب الاساسي للنسيان اذن هو ضيق شعورنا وعدم اتساعه الا لواحدة من الحالات التي ينهمك بها. على أن النسيان أسبابا أخرى ثانوية خاصة. منها قلة الانتباه وعدم وجود المصلحة وقلة التكرار وفقدان الروابط وبكلمة واحدة « فقدان الشروط المقوية للتذكر ».

٥ ـ النسيان الارادي وهناك نسيان ارادي الى جانب النسيان العفوي. ويمكن قبول فكرة النسيان الارادي لاننا اذ نبغي تذكر معلومات معينة نقتصر عمداً على تذكر بعض النقاط الرئيسية التي تفيدنا في الاتصال بباقي النقاط. ولقد قيل ان فن التعلم يستند الى فن النسيان.

٤ ـ النسيان المرضي والى جانب النسيان العادي الطبيعي نسيان مرضي يعرف بمرض الذاكرة وهو الامنزيا على اختلاف أنواعها. الجزئية والاجمالية والدورية والسبقية الخ..

٥ ـ فائدة النسيان العادي واذا كان النسيان المرضي ناتجا عن انحلال الشعور وفساد الحياة النفسية وبالنتيجة مؤديا الى عواقب وخيمة، فان النسيان العادي على العكس شرط من شروط رقي الشعور وتقدمه.

ونحن اذ لانستطيع النسيان، نبقى أمام عدد عظيم من الذكريات تتزاحم فتعمي البصيرة فلا بد اذن من انتقاء الذكرى الواحدة بعد الاخرى مادام شعورنا محدود النافذة. قال ربيو « ليس النسيان مرضاً في الذاكرة بل شرط من شروط صحتها وبقائها ». والى النسيان يرجع فضل مرونة الفكر ولباقته ولا سيما اذا كان اراديا، اذ يمسي حينئذ اداة لتحرير الشعور. والحياة النفسية السليمة انما هي انسجام جميل سعيد بين طرفين: الذكرى والنسيان.

٦٣ ـ ناقش كلمة رافيسون المشهورة « ان المادية هي التي تخلق فينا النسيان » (اكس مرسيليا ١٩٣٢) .

٦٤ ـ ماذا تقصد من قولنا « التذكر هو المقدرة على النسيان » وما هو قيمة هذا القول ؟ (هانوي ١٩٣٣) .

٦٥ ـ قال ليبنز : « لابد ان يبقى في نفوسنا شيء من افكارنا القديمة مهما تقدمت ولا يمكن ان تزول آثارها كل الزوال » . ما رايك في هذا القول ؟ (باريز ١٩٣٤)

65 - Leipniz a dit : il reste toujours quelque chose dans notre esprit de toutes nos pensées passées et aucune n'en saurait jamais être effacée complètement». Que pensez-vous de cette assertion? (Paris 1934).

شرح

١ ـ بقاء الماضي لا يزول الماضي من النفوس زوالا تاما . ولا شك قد يغيب منه قسم كبير لبعد العهد وعدم الاستعمال الا أنه قد يرجع من وقت الى آخر رجوع العادات المتحولة أو مرتديا رداء التخيل فيوجه الفكر ويساهم في التفكير . وقد يساهم في بناء الاحلام فيقدم اليها من كيانه المواد الاولية . وقد يكون رجوعه كذكريات اذا قرنت بالعرفان واعترف الفكر بحدوثها معينا مكانها وزمانها . واخيراً يجوز أن يبقى قيد الاستدعاء يتهيأ للخروج .

٢ ـ مفهوم ليبنز وفي قول ليبنز كثير من الحقائق المذكورة الا أن فيه مجالا للمناقشة . وقبل البدء يجدر بنا استعراض مذهبه كمذهب عام: يعتقد ليبنز بان النفس عبارة عن موناد مستقلة الوجود ولكن أفعالها منسجمة مع أفعال المونادات الاخرى . واذا ما ادركت نفسها تماما ادركت الكون من خلالها بما فيها من ماض وحاضر ومستقبل . فالمعرفة ان هي الا اكتشاف النفس نفسها واستظهار باطنها . أو كما قال أفلاطون « المعرفة هي تذكر النفس نفسها » . والافكار التي دخلت بوضوح الى الفكر تسكن في اعماقه المظلمة حتى يأتي اليوم الذي تلبي فيه الدواعي فتخرج من الظلمات الى النور .

قال ليبنتز[1] : «في النفس والجسم بقايا الانطباعات الماضية وآثارها ولا تخرج الى حيز الشعور الا بمناسبات الذاكرة • ولو لم توجد هذه البقايا التي بواسطتها يعمل الفكر لما كان بالامكان تفسير الاحتفاظ بالذكريات » •

٣ـ الصواب في مفهوم ليبنتز

ذلك هو مفهوم ليبنتز • والصواب فيه بقاء الآثار الى حد كبير بحيث تؤثر في تكوين شخصيتنا • فالحاضر ملآن بالماضي والمستقبل منتفخ به • وكثير من الحالات النفسية الماضية تظهر الى الشعور بأثواب مختلفة وتسبب ردوداً وأفعالا ما كان ينتظر وقوعها • وبقاء الماضي وتأثيره العميق في الحاضر أصبح موضع دراسات علمية من نتائجها ما سمعناه عن (آبر مومكي) في اصطلاحه « مقاومة المنسي » •

٤ـ التحفظات اللازم اتخاذها

أما التحفظات اللازم اتخاذها فهي في انكاره زوال الاثر • فالذاكرة ليست معصومة من النقصان • بل هي مبلية بالنقصان المتدرج الذي ينتهي الى الزوال شيئاً فشيئاً • وهناك ذكريات منسية يستحيل استرجاعها • ومهما كانت التجربة الذهنية قوية كاملة في دخولها فلن يبقى منها الا خطيطتها واذا ما ابتغينا بناءها بعد زمن على تمامها السابق نحاول عبثاً •

٥ ـ نتيجة

والخلاصة أن موناد ليبنتز النامية باستمرار والخالقة لحياتها وتطلعها الخارجي انما هي مفهوم ميتافيزيقي • ونحن اذ نفحص ماضينا نراه آخذاً بالتلاشي والتبدد لا بالتمام والتكمل • فالزمن من جهة وعوامل أخرى من جهة أخرى كل ذلك يشترك في تبديده • وهذه هي العوامل الاخرى : تاتي العادة فتقوي أمثالها • ويأتي الفكر فيجمع التجربة والحياة الحاضرة كلها في قوالب مختصرة وروابط منطقية سهلة الاتصال • وتزول المصلحة السابقة فتدير وجه النفس الى جهة جديدة • وعلى كل حال تتصف النفس بغير الكمال وينقصها الاتقان ولاديا كان أم مكتسباً وفي جملة النواقص حدوث ثلمات الذاكرة •

• • •

---

١) ليبنتز Leibniz: Nouveaux Essais sur l'entendement humain

66 - Dans quelle mesure les souvenirs reproduisent-ils le passé? (Paris 1927)

٦٦ — باي مقياس تجيد الذكريات الماضي (باريز ١٩٢٧)

شرح

١ ـ أصبح من خطل الرأي القول بان الحياة النفسية عبارة عن مستقبل ينمو ولا يعرف الا النمو المستمر . فقد رأينا كيف يتبدد الماضي و كيف تتغير الافكار بتأثير التجربة المستمرة و كيف تتحور الصور التي ظنناها تحتفظ باصلها واهابها . ومن المفيد أن نطيل النظر في هذا الموضوع ونشرح كيف تتصور الصور وما هي آلية هذا التطور والتغير .

٢ ـ التغيرات العضوية

تتغير الذكريات تغيراً عفويا . وللبرهان على ذلك خذ تجربة الطرائق القياسية : يأتي فرد من الافراد ويوجه انتباهه الى موضوع معين . اسأله بعد أيام عنه واطلب منه وصفه أو رسمه اذا أمكن . ثم بعد فترات متقطعة كرر طلبك وقارن أخيراً بين الاوصاف المتتابعة تجد بينها فروقاً كبيرة تدلك على التغيرات العفوية للذكريات اعتباراً من الذكرى الاولى حتى الذكرى الاخيرة . ومن أمثال هذه التجارب ينتج معك ما يلي : ١ً) كلما بعد العهد بين الحادثة الاصلية وبين ذكراها كلما زاد الانحراف و كثر التحوير في الوصف ٢ً) تنزع التغيرات الى الفقر والقلة بحيث تمسي خطائط مختصرة . وتختلف طبيعة التغيرات باختلاف الفرد . ٣ً) والخطائط المذكورة محدودة الاتجاه . اذ تخضع الى غائية تعتبر كنتيجة لمنطق لاشعوري يمت الى التفكير العالي بصلة . ولكنها ينقصه الصقل المنهجي . ٤ً) على أن الاتجاه المتناقص يرافقه اتجاه متزايد يسد النواقص ويملأ الثلمات : فقد يضيف الفكر الى ثلمات الذكرى ما يتم هيكلها ويتوج سلامتها ويستعير المواد الاولية من ادراكات مماثلة . وهذا الاغناء من ضرورات المنهج المنطقي نفسه الذي ابتغى الاقتصار على الضروري والذي استهدف

الاختصار بالخطائط .

وهكذا تتحور الذكريات بالنقصان تارة والاضافة أخرى . وقد يتوسع التحوير العفوي في أحوال الاختراع فيكون تحويراً كلياً وتتغير طبيعته نفسها . وبتحويل المعطيات القديمة تحويلا عميقاً يصل الفكر الى شيء جديد في ذاته طريف مبتكر .

٣ ـ التغير الارادي كلياً أو جزئياً

ومثل التحوير العفوي التحوير الارادي . فقد تتداخل ارادتنا في طرد بعض العناصر من ذكرياتنا . وفي هذا الطرد جهد ارادي تشعر به النفس . وغالبا ما تطرد النفس ما يزعجها ومايعكر عليها صفو تفكيرها . ويرى الدكتور فرويد أن الانسان بميله الطبيعي يتناسى كل ما هو غير ملائم . يقول « ان النسيان ينشأ عن تذكر النفس لما قد يسبب فيها هيجانا مزعجاً » . واذا أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار دون أن نسترسل مع فرويد في اتجاهه ومذهبه نرى أن كثيراً من الذكريات يتناساها الفكر أو يتناسى بعضها ليحل محلها ذكريات أخرى تتلاءم مع ميوله ورغباته . قال نيتشه : « تقول لي ذاكرتي أنا الذي فعلت كذا . فتقول لي كبريائي لا مافعلت ذلك أبداً وتبقى كبريائي مصرة فتقنط ذاكرتي وتترك الامر لكبريائي » . وقد ننسب الى أنفسنا أعمالا لم نفعلها نحن ولكنها تروي أنانيتنا . هذه الافعال اما هي اخبرنا واما هي خيالية محضة وتدخل الى ذاكرتنا دخولا جريئاً فتغير بعض ذكرياتنا ثم تتوسع واذا ما بلغ التغير هذا الحد يخلق فينا شخصية خيالية محضة أشبه بشخصية « ترترن » التي وصفها « الفونس دوده » . تلك الشخصية التي امتلأ ماضيها بالبطولات العظيمة والاعمال الباهرة .

٤ ـ خلاصة

وقصارى القول يلعب التخيل دوره في تحوير الذكريات . والتحفظات الواجب أخذها بعد ذكر الصفة العفوية للابداع التخيلي أن عملية التحوير فيه ليست كلها آلية . ومن جهة أخرى اذا كانت ذكرياتنا تتطور فذلك لانها منوطة بتحولاتنا الخاصة وتابعة لها التصاقا متيناً .

قال « رويه كولار » : اننا اذ نتذكر الاشياء انما نتذكر ما في أنفسنا » . والذي يحدد الذكرى ويعينها ان هو الا شروط شخصانية قبل كل شيء كانت رافقت ثبوت الذكرى في الشعور . وبما أن هذه الشروط هي دوما في تغير مستمر فليس عجيبا أن نرى تغير الذكريات يتبعها . وعن (كاميل ماربو) أن « الحوادث المتتابعة في ذاكرتنا تنسج نسيجا نطرز عليه نحن رسوما وصوراً بانتخاب منا كثير . ثم نضيف وننقص ابتغاء رتش الصور . فالصور التي نظن أننا استرجعناها على ما كانت ، هي بعيدة الشبه عن الصور المسترجعة استرجاعاً فوتوغرفيا بل هي أشبه بالخطائط التي تعبر عن منظر معين أو هيأة معينة تعبيراً ركيكا . وهي صور لا يؤمن لها ولا يوثق بثباتها وكلما مر يوم أضاف الى سلسلة التغيرات سلسلة وتحورت رسوم النسيج تحوراً لاشعوريا ذلك النسيج الذي يعيد الماضي » . فذكرياتنا وهي منتوج فكرنا الحي الفاعل تحيا في لاشعورنا باستمرار وبمقدار ماتدوم تتحول باستمرار .

...

٦٦ — فسر وناقش فكرة باسكال الاتية (الذاكرة لازمة لجميع عمليات العقل (اي التفكير) (باريز ١٩٣٣)

67 - Expliquez et discutez cette pensé de Pascal: « La mémoire est nécessaire pour toutes les opérations de la raison c'est à-dire de la pensée) . (Paris 1933)

شرح

١ – استمرار الحياة النفسية

تخضع الحياة النفسية الى قانون الاستمرار كالحياة العضوية . والتمثلات التي ترتسم في الشعور متتابعة ، تتحد بما سبقها من الاحوال النفسية التي لاتضيع تماما فيتاح لها الرجوع مرة أخرى الى الشعور . وبدون هذه الخاصة الاحتفاظية والاستعادية يمسي الحادث الذهني بدون تأويل ولا معنى له في الفكر ، مثل ذلك الطفل المولود ميتا يضمحل قبل أن يكاد يدرك . أو كما قال برغسون « يغرق الفكر في المادة » . فالذاكرة

تسند الحياة النفسية وتتحد وتمتزج اذا جاز القول بالشعور لتؤلف استطالة الشعور الماضي . فليس عجيبا أن يقول باسكال : الذاكرة لازمة لجميع عمليات العقل .

٢ ـ فكرة باسكال كقانون عام

واذا نظرنا الى قول باسكال كفكرة منفصلة عن فلسفته الخاصة تبدو لنا هذه الفكرة مبالغة في عموميتها واطلاقها . لان بعض العمليات الفكرية لاتحتاج الى الذاكرة . مثلا الاحساس الخام كما يحدث في الطفل الصغير الذي لم يع بعد ، والشعور العفوي بل التفكير الحدسي نفسه[1] كل ذلك مباشر وكله يتم في الحاضر .

٣ ـ فكرة باسكال ضمن فلسفته

اما اذا نظرنا الى قول باسكال كجزء من فلسفته ، فان هذه الفكرة تبدو اكثر احكاما وصوابا . لأن العقل بنظر باسكال هو ملكة الحكم والاستنباط وبتعبير أحدث هو « الحاكمة » نفسها أو التفكير الاستدراجي pensée discursive الذي هو عكس التفكير الحدسي intuitive المسمى عنده أحيانا بالقلب . حينئذ يجوز تعميم فكرة باسكال بان الذاكرة لازمة لكل عملية فكرية استدراجية .

٤ ـ شأن الذاكرة في اكتساب المعرفة

فالذاكرة أولا لازمة لاكتساب معارفنا . ولاشك أن الاحساس شرط أول للادراك غير أن الادراك هو أكثر من احساس خام . هو عملية فكرية تنطبق على المعطيات الحسية الحاضرة باضافة عناصر أخرى تمثيلية من فعل الماضي ومن جملتها الصور المتذكرة images rémomérées ـ والادراكات التي تسمى عادة بالادراكات المكتسبة وهي تسمية غير مضبوطة ، تنتج عن ترابط المعطيات الحسية الحاضرة بالصور المتذكرة لمعطيات سابقة . وبهذا المعنى يقال الادراك هو التذكر .

---

(١) لانوافق المؤلف على أن التفكير الحدسي لايحتاج الى الذاكرة وأنه مباشر . بل نميل الى الاعتقاد مع باسكال . (المترجم) .

وللاستزادة راجع بحث الحدس في كتابنا المنطق ص ١٢٠ .

٥ ـ شأن الذاكرة في نضج المعرفة

والتخيل الاسترجاعي كما يبدو من اسمه هو نسخة طبق الأصل . غير أن العناصر الذي يسترجعها التخيل في انتقاله من مرحلة الاسترجاع الى مرحلة الابداع هي عناصر عانت تغيرات مستمرة في تيار الشعور . وعلى كل حال تدلنا على أنها عناصر من أصل ذاكري وتدلنا على تدخل الذاكرة في عملية التخيل .

واذا انتقلنا أيضاً الى الوظائف العالية الاخرى من تجريد وتعميم ولغة وحكم ومحاكمة نرى الذاكرة لابد منها لان كل هذه العمليات تستند في سيرها الى مرتكزات ذاكرية . فلا حكم بدون ذاكرة لان موضوع الحكم يستلزم انتقاء محمول له وهذا الانتقاء مدين الى التذكر . وكذلك لامحاكمة بدون ذاكرة لان القضايا السابقة هي التي تلد القضايا اللاحقة فاذا ضاعت واحدة من السابقة بطلت المحاكمة . وأخيراً لا علم بدون ذاكرة لان العلم مؤلف من عناصر جديدة بفضل العناصر القديمة فاذا ضاع القديم يستحيل الحصول على جديد .

٦ ـ خلاصة

والخلاصة ان الذاكرة من الملكات الثمينة التي يتمتع بها الانسان ويقوى . وبدونها لايعرف شيئاً ولا يتاح له أن يعيش كشخص . وأحسن دليل على ذلك أمراض الذاكرة التي تسبب اختلالا في الشخصية واضطرابا في الشعور بالانا يرافقه اضطراب مثله في المعرفة عموما .

...

٦٨ ـ بأي معنى يصح قول (روية كولار) (اننا اذ نتذكر الاشياء انما نتذكر ما في انفسنا) . (باريز) .

68 - En quel sens est vrai le mot de Royer-Collard : « On ne souvient pas des choses, on ne souvient que de soi-même?» (Paris).

ينبغي التمييز بين نوعين من الذاكرة : أولا الذاكرة اللاشخصية Impersonnelle

التي هي أقرب الى العادة . وتفيد في استعمال المعارف المكتسبة سابقا . فالنص المحفوظ بالتكرار ، والكلمات اللغوية المستعملة للتعبير عند الحاجة والمعلومات المخزونة المستمدة للتلبية حين النداء . كل ذلك ملحق بالذاكرة اللاشخصية ما دام لايثير ذكرى شخصية . وفي هذه الحالة لا نتذكر الا الاشياء حقا .

٢ ـ أما الذاكرة الشخصية personnelle والتي يسميها بوغسون بالذاكرة النقية المحضة : هي الذاكرة التي تحمل معها تاريخها وما أحيط بها من حوادث ماضية حدثت في النفس . فاذا أثار النص المحفوظ ماشعرت به أنا من انطباعات وعواطف منذ قراءتي له للمرة الاولى حينئذ أكون في حالة الذاكرة الشخصية . والفرق بين النوعين كبير كالفرق بين المعلومات الجغرافية التي يعرفها انسان عن ايطاليا والانطباعات التي ينالها سائح زار ايطاليا . لذلك ينبغي الا نخلط بين قولنا استعمال الذكريات utilisation وقولنا استدعاء الذكريات évocation .

٣ ـ وينتج مما سبق متى يصح قول (كولار) وفي أي ظرف تستعيد النفس جزءاً من ماضيها وتستدعي الأنا القديمة .

٤ ـ وهو قول صحيح جدا في حال تعرفنا على شخصيتنا أي شعورنا بالأنا ورجوعنا الى ماضينا . ولقد أصاب ستوارت مل حين لاحظ أن التأمل البسكولوجي يفترض وجود الذاكرة : فالنظر الداخلي introspection هو الاغلب نظر استرجاعي rétrospetion

٥ ـ ويفيدنا علم النفس المرضي بان أمراض الذاكرة تجر وراءها أمراض الشخصية . فالأنا الحاضرة تمد جذورها في الانا الماضية فاذا انقطعت الجذور وانفصل الماضي عن الحاضر تصاب الشخصية بانقلاب كلي . فالذاكرة والشخصية شيئان لا يفترقان .

. . .

69 - Y a-t-il une mémoire des sentiments? (Paris)

٦٦ — هل هناك ذاكرة عواطف؟ (باريز)

شرح

ريبو يثبت وجود ذاكرة انفعالية

كان ريبو أول من تحرى بدقة وجود ذاكرة عاطفية وتخيل انفعالي : وذلك ١) في تذكر الروائح والمذوقات ٢) في تذكر اللذات والآلام الجسمية ٣) في الهيجانات والعواطف وسوف ينحصر بحثنا في الصنف الثالث الاخير ٠

جمس ينفي وجودها : حججه

ويختلف جمس عن ريبو فينفي وجود الصور والذكريات الانفعالية ٠ وحججه في ذلك : ١) ان ذكرى الهيجان قد لا تكون هيجانا ٠ وفي هذه الحالة تكون الذكرى فكرية تصويرية ٠ فقد يذكر الانسان ظروف هيجانه ويتمثل صورته دون أن يحدث في نفسه الهيجان ٠ ويعترف ريبو بوجود ذاكرة فكرية مجردة من الانفعال بمثال أورده عن أحد مراسليه الذي أحاطه مرة خطر المد على الساحل، فلما كان يتذكر الخطر بعد غيابه وهجوم الماء كانت الذكرى فكرية لم يرافقها الهيجان ٠ ٢) قد تكون ذكرى الهيجان من نوع معاكس مثلا ذكرى الألم قد تكون لذة وبالعكس ٠ وكثيرا ما يذكر الشيوخ لذات الصبا متنهدين ٠ ٣) قد تكون ذكرى الهيجان هيجانا من طبيعة الهيجان القديم ولكنه هيجان جديد أثارته صور الذكرى ٠

ويؤيد الاعتبارات السابقة مفهوم وليم جمس عن الحياة النفسية ٠ وهو أن الشعور لايستطيع أن يعيد حالة من حالاته السابقة ٠ نعم قد يظهر الشيء الخارجي أمام الشعور مرتين غير أن هذا الشيء لايستطيع أن يسبب في النفس احساسين متماثلين ٠ فحاسيتنا اليوم هي غير حاسيتنا البارحة ودماغنا الجديد هو غير دماغنا القديم ٠

الذاكرة الانفعالية غلط؟

هذان هما الرأيان فأيهما أقرب الى الصواب ؟ .

ان الصواب في رأي جمس أن الذاكرة الانفعالية نادرة الحدوث باعتراف ريبو نفسه . اذ قال في خاتمة بحثه : « أكثر الذين يذكرون انما يذكرون الشروط التي أحاطت بالهيجان وظروفه . فهم ذوو ذاكرة فكرية » . وهذه الذاكرة الفكرية يسميها ريبو الذاكرة الانفعالية غلطاً affective fausse أو الذاكرة المجردة .

الذاكرة الانفعالية الصحيحة

واذا كانت هذه الذاكرة المجردة عبارة عن هيكل الذاكرة الانفعالية الصحيحة وبديلة الحادثة الواقعية ، فالذاكرة الانفعالية الصحيحة أو المشخصة كما قال ريبو هي : رجوع الحالة السابقة الى الحياة بما فيها من تأثيرات ومشاعر . وبما أن جمس يقول ليس الهيجان المستذكر هو الهيجان القديم بل هو هيجان جديد أثارته الصور القديمة ، فهنا نصل الى عقدة الاختلاف بين الفيلسوفين .

معناها احياء هيجان قديم لااحداث هيجان جديد

وفي هذه الناحية لايخلو قول ريبو من صواب . لان كثيرا من الشعراء ينتمون الى الطائفة الانفعالية . قال الشاعر (سولي برودم) : « من عادتي أني اذا التقيت ببعض قصائدي بعد زمن كأن أعثر عليها في درجي وأعيدها ، أشعر حينئذ شعورا واضحاً بالعواطف نفسها التي كانت تخالجني . فانا لاأنفصل عن أشعاري .. وكلما تذكرت هيجاني في زمن دخول الالمان باريز ، سرعان ماأقع في الهيجان نفسه لامحالة » .

يولد الهيجان وشروطه العضوية

وتحقيق الذاكرة الانفعالية يستلزم حدوث شروطها العضوية التي رافقتها . بمعنى أن ذكرى الميت الذي شهدت موته مثلا ، يرافقها الآلام والدموع نفسها . وقد لا أشك بان آلامي ودموعي الجديدة هي شيء غير آلامي ودموعي القديمة ولكني أراها مماثلة لها كل المماثلة . وهذا كاف للتثبت من وجود ذاكرة عاطفية .

الذاكرة الانفعالية استثنائية

فيوجد اذن نمط عاطفي من الناس كما يوجد نمط بصري ونمط سمعي ونمط تحركي . فالذين لاينتمون الى الطائفة العاطفية يسهل عليهم نكران الذاكرة الانفعالية . وكثيراً من علماء النفس من ينكر وجودها . أما الذين ينتمون اليها جزءاً أو كلا فبعضهم يستذكر الهيجانات الملائمة دون المنافية وبعضهم يستذكر الهيجانات المنافية وحدها . وعلى كل حال نعترف بان الذاكرة الانفعالية خاصة أكثر منها عامة ومنحصرة بعدد من الناس محدود .

سبب نكران وليم جمس

وينكر وليم جمس وجود الذاكرة الانفعالية لانه لا يرى أن الهيجان الجديد هو ذلك الهيجان القديم نفسه . اذ كيف يصبح الماضي حاضراً أم حقيقياً ؟ وكيف تكون الذاكرة مشخصة في حال غياب مشخصاتها ؟ ـ هكذا يرى جمس وقد بينا كيف يتاح لنا القول بوجود الذاكرة الانفعالية .

خلاصة

والخلاصة ليست الذاكرة الانفعالية شائعة بمقدار الذاكرة الفكرية . واسترجاع الذكرى الانفعالية أمر صعب لايتيسر للجميع . لذلك نرى في العاطفيين أنفسهم ذاكرات عاطفية جزئية . واذا كان الهيجان القديم يجوز استرجاعه مع شروطه القديمة فليس صوابا أن نراه هو هو . ويبقى قانون جمس القائل بعدم امكان حدوث الحالة النفسية مرتين صحيحاً . على أنه لا يصعب التقريب بين النظريتين اذا فهمنا الذاكرة الانفعالية كما يجوز فهمها ـ أي الذاكرة المماثلة لا الموحدة . عندئذ لايستبعد أن تلتقي النظريتان في بعض النقاط .

. . .

٧٠ ـ هل تذكر هيجانٍ ما هو تذكر الهيجان نفسه أم هو شعور جديد ؟ (ثانسي ١٩٣٤) .

٦ – تداعي الافكار

٧١ – المفاهيم المختلفة التي يجوز اتخاذها في اعتبار طبيعة تداعي الافكار (بزنسون ١٩٢٥)

71 — Des différences conceptions que l'on peut avoir de la nature de l'association des idées (Besançon, 1925)

متن

أربعة مفاهيم مختلفة كما عددها دوماس M. Dumas .

١ً – المفهوم الذي يرجع التفكير كله الى التداعي . وهو مذهب التداعيين الذين يعتقدون أن جميع وظائف الفكر حتى المعقدة منها ، مظهر لتداعي الافكار . وفي هذه الحالة يفسر التفكير تفسيراً ثلاثياً بالتتابع والهوية والاختلاف Succession, identité, différence ثم يصبح تفسيراً وحيداً عند « بن » و « ستوارت مل » .

٢ً – المفهوم الثاني يفرق بين التفكير والتداعي . التداعي هو تفكير بسيط ابتدائي . هو ترابط ميكانيكي محض واقتران وعادة Contiguïté et habitude أما التفكير العالي فهو ربط مقصود معقول يتابع العلاقات المنطقية .

٣ً – المفهوم الثالث يحلل التداعي تحليلا عميقاً فيرى فيه قوانين كثيرة يخضع اليه انسجام التصورات والافكار (أي التفكير بكامله) . وفي هذه الحالة يوجد أنواع للتداعي بعدد ما يوجد من قوانين للتفكير . ومع ذلك يعترف هذا المفهوم بنتائج المفهوم السابق وأنه يوجد نوعان من وظائف الفكر : الوظائف الآلية المحضة والوظائف المنطقية المقصودة .

٤ً – المفهوم الرابع ينكر وجود التداعي لأن مذهب التداعي يفترض وجود ذرات ذهنية يتميز بعضها عن بعض . مع أن تصوراتنا الذهنية هي في الواقع كتلة واحدة لا مجال الى تحليلها .

الخلاصة لا يجوز انكار التداعي مع جواز التحليل النفسي العلمي . وهذا التحليل العلمي يرينا نوعين من التفكير حقاً : ١ً) التداعي ذلك الترابط الآلي العفوي : ٢ً) التأمل ذلك التفكير المنطقي المقصود الفاعل .

...

٧٢ — هل صحيح أن تداعي الافكار يجري جرياناً ميكانيكيا محضا . (باريز)

72 — L'association des idées s'opère-t-elle d'une façon exclusivement mécanique (Paris)

شرح

بينما كنت أفكر في (سانت شابل) خطرت لي سلسلة من الافكار والذكريات : سن لويس ، جوئفيل ، الحروب الصليبية ، القدس ، ثم بعض أوصاف كتبها شاتوبريان ولوتي . فهذا التسلسل في الافكار والصور التي يدعو بعضها بعضاً يسمى في علم النفس « تداعياً » .

المدرسة الانكليزية التداعي آلي محض ومن خواص التداعي أنه يجري جرياناً آلياً دون تدخل الانتباه أو فاعلية الفكر . فهل هذا صحيح كل الصحة ؟ إن التجريبيين الانكليز يعتقدون ذلك كل الاعتقاد عن غير اثبات ، ونظريتهم هي التي دامت كنظرية مدرسية . ولكن النظريات الحديثة شعرت بعدم كفايتها .

ثلاثة قوانين للتداعي ويميز عادة بين ثلاثة قوانين للتداعي : الاقتران ، التشابه ، التضاد . فقانون الاقتران ينص على أن تتابع شيئين أو أكثر يجري أمام الشعور ، يسبب مثل هذا التتابع في الفكر بحيث اذا خطر أحدهما تبعه الآخر . مثلا فكرة قوس الظفر تدعو فكرة الجندي المجهول وفكرة المأذنة تدعو فكرة الجامع أو الصلاة . — والقانون الثاني والاخير ينصان على أن شيئين أو أكثر متشابهين أو مختلفين يدعو أحدهما الآخر . مثلا : قيصر نابليون (تشابه) . أبيض أسود (تضاد) .

المدرسة الانكليزية
قانون الاقتران .

فالمدرسة الانكليزية ترجع التضاد أولا الى التشابه . ذلك لان كل تضاد يفترض وجود تشابه ولا معنى للتفريق بين شيئين اذا لم يكونا في الاصل متشابهين . والابيض والاسود في الاصل « لونان » وواحدهما « لون » . ثم ترجع التشابه الى الاقتران لان بين الشيئين المتشابهين هوية جزئية identité partielle معناها أن أحدهما هو الآخر ضمنه الا قليلا . فعنصرهما المشترك هو نقطة الاقتران وهو موضع الاتصال الذي ينتقل بواسطته الفكر من أحدهما الى الآخر . واذا استعرنا مثالا من جمس نقول ان القمر والطابة متشابهان في عنصر « الكروية » تلك الفكرة المشتركة التي بفضلها يجري تتابع القمر والطابة في الفكر . وبفضل العنصر المشترك يرجع تداعي التشابه الى تداعي اقتران وتتابع .

التداعي حالة خاصة من العادة

وبعد ارجاع جميع قوانين التداعي الى قانون الاقتران يسهل علينا ارجاع التداعي الى العادة . فالاقتران انما هو حالة خاصة من العادة بسبب رجوع الفكرتين المتتابعتين رجوعا آليا وميل هذا الرجوع الى التكرار . وقد نجد هذه النظرية في تعبيرها الفيزيولوجي عند جمس حيث يقول : « يؤول الامر الى قانون العادة العصبية الذي تخضع اليه سلسلة الافكار » . وهكذا تمسي مسألة فيزيولوجية من اختصاص ميكانيقية الدماغ .

لايجوز ارجاع التشابه الى اقتران

تلك هي النظرية الانكليزية التي يصعب قبولها على علاتها . وفي مناقشتها نقول : يمكن أولا اعتبار الاقتران كعادة في التداعيات القديمة التي تعيد على ساحة الشعور حالة قديمة . وكذلك يمكن اعتبار التشابه والتضاد كعادة اقترانية في الحالات المبتذلة المتكررة على مسمع الناس . قال بن : « الانسان منذ قدمه يصف العاصفة بحرب عوان بداعي التشابه » وقال أيضا « كلنا نحشو الذاكرة في هذه الاضداد المبتذلة : ابيض أسود . عالي وطي . تحت فوق . طويل قصير . غليظ رقيق . قوي ضعيف . شاب شيخ . غني فقير . حياة موت . تعب راحة . صواب خطأ . الخ .. بحيث اذا أتى الطرف لحقه الطرف الآخر مباشرة » .

لاتعتبر التداعيات الحديثة كعادة

أما في التداعيات الحديثة ، وهي حالات أكثر تداعي التشابه والتضاد ، فلا مجال الى اعتبار التداعي عادة ولا كل تداع اقترانا . لان الشعور هنا يخلق ويبدع لايكرر . أما رأيت كيف توصل لافونتين الى تشبيه السلحفاة السائحة باوليس ulysse حين قال في شعره : « من كان يعلم أنه يخطر لنا أوليس في هذا المقام ! » ان أمثال هذه هذه التداعيات[1] كما قال بودن لاتفترض وجود روابط ميكانيقية من طبيعة العادة بل روابط وعلاقات ذهنية .

وقد لاحظ روستان بحق « أن التشابه لايعود الى مجرد هوية جزئية ملحقة بفوارق » . ومثال هوفدينغ يرينا « أن التشابه الكائن بين البرتقالي والاصفر لايدعو الى تقسيم البرتقالي اقساما بعضها الاصفر والباقي برتقالي ».

ثم اذا كان التداعي بالتشابه والتضاد يتصف بصفات ابداعية وبالنتيجة ذهنية فليس معنى ذلك أن التداعي ترابط منطقي دوما . وبتعبير آخر ليس التداعي من طبيعة المحاكمة . فالتداعيات الحديثة تحتوي فاعلية فكرية عفوية واندفاعا ذهنيا ديناميكيا لم تدرك المدرسة الانكليزية طبيعته .

وكذلك يصعب علينا اعتبار التداعي المشوب بعنصر انفعالي كانه عادة أو مجرد تكرار . واننا نرى في اشعار فيرلين تشابيه واستعارات أبعد أن تكون ذهنية . قال فيرلين :

تنهدات الرياح	Les sanglots longs
رتيبة النواح	Des violons
تجرح قلبي بها قيثارة الخريف[2]	De l'automne.

---

(١) لاينس القارىء أننا نترجم . وأمانة الترجمة تدعونا الى الاحتفاظ بامثلة المؤلف في هذا الموضوع . ولو كانت بنظرنا أقل إحكاما من أمثلته التي يوردها عادة في مواضيعه الاخرى . (المترجم)

(٢) تعريب علي محمود طه ـ مجلة المقتطف فبراير ١٩٣٥ .

فهذه مشابهات من طبيعة عاطفية انفعالية لا من ميكانيكية ذهنية .
ونوضحها بقولنا اذا تذكرنا باريز بفكرة نهر السين فيكون التداعي مجرد تكرار ذهني . أما اذا أثارت فكرة السين في شعورنا فكرة السرعة أو قصر الحياة فيكون التداعى من طبيعة انفعالية نحس به حسا أكثر مما نفكر به فكراً .

ثلاثة أنواع للتداعي لا واحد

والخلاصة ينبغي التمييز بين ثلاثة أنواع للتداعي على الاقل ١) التداعي الذي يفسر بالعادة والتكرار الآلي . ٢) التداعي الذي يدخله عامل فكري . ٣) التداعي الذي يدخله عامل انفعالي . والنوعان الاخيران هما اللذان لايجريان جريا آليا وهما اللذان يفترقان عن العادة الميكانيقية .

قد يوجه الانتباه تداعي الافكار

ويضاف الى ماسبق أن جمس نفسه الذي أرجع القوانين الثلاثة الى اقتران يذكر هو عوامل هامة غير الاقتران. قال جمس : « للانتباه الانتقائي والارادة أثرهما في توجيه التداعي وذلك « بتثبيت بعض التمثلات الذهنية وحذف بعضها الآخر لصالح الآخر وايقافه دون الآخر » . ثم قال « وهذا هو مسلك الروحيين وفي مثل هذه الطريق خلافا للآلية التداعية في أرض التداعي »

واذا كانت العادة كافية لتعليل أن غروب الشمس يذكر الكلب بعشاء المشاء فانها غير كافية لتعليل أن غروب الشمس يذكر الانسان بموت الابطال (المثال عن جمس).

وقصارى القول لم تنجح المدرسة التداعية في اثبات أن الحياة النفسية كلها عبارة عن جواهر وذرات تتدافع وتتجاذب . وهي فضلا عن كونها عاجزة

عن ايضاح الوظائف الفكرية الآلية من تجريد وتعميم وحكم ومحاكمة ، هي عاجزة أيضاً عن ايضاح التداعي نفسه أيضاحاً تاماً .

...

٧٣ - ميز بوضوح بين قانون التشابه وقانون الاقتران . هل يجوز ارجاع الاول الى الثاني ؟ (الجزائر ١٩٣٢) .

...

٧٤ - بم يفترق التداعي التجريبي والربط المنطقي أحدهما عن الآخر ؟ وما هو أثر أحدهما في الآخر ؟ (إكس مرسيليا)

...

٧٥ — هل يكفي تداعي الأفكار لتعليل كل ما في الحياة الذهنية ؟
(ستراسبورغ ١٩٢٧ ، الاسكندرية ١٩٣٠) .

٧ – التخيل المبدع

٦٧ – بأي معنى يجوز القول إن التخيل مبدع (بوردو ١٩٢٦، ليون ١٩٣٠، استنبول ١٩٣٣).

76 — En quel sens peut-on dire que l'imagination est créatrice?(Borbeaux 1926) (Lyon 1930) (Istanbul 1933).

متن

١ – يقال احيانا ان التخيل لايبدع شيئاً. إنما يمزج مابين عناصر سبق وجودها في الذاكرة.

٢ – التخيل عمل مضاعف: حل وربط.

١) يحل ما في كتلة الشعور من عناصر ويعزل مايحتاج اليه عزلا افراديا

٢) ربط العناصر التي عزلها ليؤلف منها كلاً جديداً وكتلة طريفة، وبهذا المعنى يستخدم التخيل بقايا الذاكرة ليس الا.

٣ – عدم كفاية النظرية السابقة.

ليس التخيل قاصراً على جمع بقايا وليس محدوداً بهذه الوظيفة لانه قبل أن يبني بناءه يحور العناصر الابتدائية تحويراً اساسياً، ويحدث فيها تبديلات غريبة. وتبديله تارة عفوي وتارة ارادي. (انظر الموضوع ٦٦).

٤ – وليس هو مجرد «وضع احجار بعضها فوق بعض كما تبني البيوت» (وليم جمس) بل هو ضم ومزج، وايجاد واحياء، وابداع.

....

٧٧ – لقد قيل ان التخيل هو التذكر واعادة التذكر». مارأيك في هذا الحكم؟ (باريز ١٩٢٦)

...

٧٨ – ماهو شأن الوحي، والتأمل في الابداع الاستتيقي (باريز ١٩٢٦)

78-Quel est le rôle, dans la création ésthétique de l'inspiration et la réfléxion ?(paris 1926

شرح

١ — ترى المدرسة الواقعية ان الجمال يتأتى عن تقليد الطبيعة . فمجرد تقليد الطبيعة كاف لاحداث الشعور بالجمال واثارة الهيجان الاستيتيقي . ان هذا الراي ناقص . فالفن لايحصر جهود الفكر في نقل مظاهر الواقع و ترجمتها رغم ما في هذا النقل و الترجمة من مهارة و تفنن . ان الفن يحتاج الى الخيال كما يحتاج الى صناعة الواقع . بل ان صناعة الواقع لاتثمر اذا لم توجهها ملكة فنان «١» إبداعية . وبتعبير آخر اذا كان الاثر الفني يتطلب معرفة عميقة في كيفية تشكل مظاهر الواقع و قيمته فانه يتطلب ايضاً معرفة عميقة في كيفية ادراك ما ينبغي تاويله . وهذا هو عمل التخيل العميق تلك الملكة الاساسية للاختراع .

فالاختراع يحتاج الي شيئين : اولا « الاستيحاء » من الطبيعة وسواها . ثانيا « التامل » وهذان العاملان هما اللذان يساهمان في الابداع البديعي «٢» .

شأن الوحي

٢ — كلنا يعلم مع ريبو أن الاختراع « ليس منوطاً بارادتنا متى شئنا » . فهو مدين إلى عامل لاشعوري أو نصف شعوري Semi Conscient ألاوهو الوحي ، والوحي من صفاته المفاجأة واللاشخصية . ويبدو آتياً من خارج الانسان من نقطة هي موضع الاستيحاء . وقد انتبه الاقدمون إلى هذه الناحية ونسبوا الوحي الى آلهة الشعر التي توحي عناصر الفن إيحاء عجيباً في تتابعه وانسجامه .

والشعراء والفنانون في كل عصر وصفوا الاختراع بالمفاجأة واللاشخصية تلك الصفة السرية Mysterieux . قال غوت في كتابه فرتر إنه كتب خواطره كتابة لاشعورية كأنما كان في حلم ، وقال موزارت « تتهاجم على

(١) أصبحت كلمة فنان مستعملة لدى أكثرية المؤلفين رغم أنها لاتدل على المعنى المقصود من الفن . فكثرة الاستعمال اكسبتها قوة العرف والعادة فاستعملناها وسوف توضع في قواميس اللغة ككلمة محدثة ضرورية . (المترجم) .

(٢) استعمل المؤلفون العرب لفظ « بديع » بالمعنى الخاص بفلسفة جمال الالفاظ ومعانيها ، أما نحن فنعمم معنى هذا اللفظ فنطلقه على فلسفة جميع أنواع الجمال فيكون مرادفاً إلى الاستيتيقا = البديع . والنسبة منه بديعي Esthétique . (المترجم) .

الافكار جماعة وبسهولة زائدة ولا أعلم كيف أتت ومن أين أتت » وقال لامرتين « أنا لا أفكر ولكن أفكاري تفكر بدلاً مني » . ثم يقول تارتيني عن أحلام النوم « إنه يرى ويسمع في منامه شيطان الشعر والتمثيل فيستيقظ فيكتب » . وكذلك الموسيقي شومان والشاعر كولردج .

لايكفي اللاشعور وحده للاختراع

٣ — على أن اللاشعور والنوم مع ذلك غير كافيين للاختراع بل قد يعيقاه أحياناً ، والسكران إذ يكتب قد يغير مايكتب إذ يصحو ، ولقد أحسن ريبو حين قال « الوحي أشبه بالبرقية المتقطعة التي يسجلها المسجل لاشعورياً ولكن بعد الاستعانة بالفاعلية الشعورية التي تصل ما انقطع وتجعل الابتر كاملاً » ، وفضلاً عن أن الشعور يجري وظيفة التحقيق والانسجام كما يسجم الادراك معطيات الحواس المنفصلة ، كذلك هو يجذب العناصر بعضها إلى بعض بجاذبية أشبه بالتماسك الكيماوي الذى تسببه إضافة جسم مساعد يثير التفاعل والاتحاد — كما لاحظ (لالو) . أضف إلى ذلك أن العمل الفني الذي يبدو مفاجئاً هو مدين إلى كثير من الفاعلية الشعورية التي كانت أطالت التأمل في موضوعه سابقاً ومنذ زمن بعيد أو قريب .

علاقة اللاشعور والتأمل أحدهما بالآخر

٤ — ومن جهة أخرى لايجوز تحديد وظيفة اللاشعور بتقديم المواد الأولية وتحديد وظيفة الشعور بتأليف هذه المواد ، إن الامثلة السابقة ترينا أن اللاشعور لا يقتصر دوماً على تقديم أعمى للمواد بل يقدمها أحياناً شعراً منتهياً أوفصولاً تمثيلية تامة أوقطعاتموسيقية كاملة .

وهذا التحليل والتركيب اللذان يتلقاهما الشعور من اللاشعور (ولا سيما في الازمات النفسية التي يكون فيها الوحي خصيباً) شرحها كثير من الفلاسفة ، قال برغسون : « الخطيطة (١) هي تمثل ابتدائي مهيأ للاتمام ، وهذا التمثل اندفاعي ويحوي صوراً أكثر مما يحوي متمماتها » . وقسم ريبو التخيل المبدع إلى نوعين : ١) تخيل حدسي يجري من الوحدة الى التفصيلات ٢) تخيل استدراجي أي تأمل يجري من التفصيلات الى الوحده تدريجاً . وأضاف الاستاذ (لالو) نوعا ثالثاً هو التخيل الذي يجري من تفصيلات الى تفصيلات أخرى أكثر تفصيلا وتشتيتاً .

---

(١) نترجم كلمة schéama بكلمة خطيطة .

وعلى كل حال نلاحظ أن علاقة الوحي والتأمل أحدهما بالآخر علاقة معقدة خلافاً لما نظن لاول وهلة، فتارة يكون التمثل الشعوري مدفوعا بعوامل نيزيولوجية تنميه وعوامل لاشعورية وتارة يكون مدفوعاً من قبل نفسه . وكثيراً ماتتشارك العوامل على اختلافها في خلق الفن .وقد أتى هانري بوانكاره بمثال عن نفسه في كتابه (العلم والطريقة) « أنه استطاع أن يوجد أحد اكتشافاته بتأثير تنبيه القهوة من جهة ثم بتأثير التأمل السابق الذي كان يتراكم بدون جدوى محسوسة ثم من جهة ثالثة بتأثير التأمل الاخير الشعوري الذي ربط العلاقات بعضها ببعض ربطاً محكماً » . وهذا المثال عن التخيل العلمي ، غير ان التخيل البديعي لا يختلف عنه من حيث الطبيعة والتسلسل الميكانيكي وليس الاختلاف الا في المواد الاولية مواد البناء والصناعة .

نتيجة

٥ — ينتج مما سبق أن الابداع البديعي مدين الى اثنين : الوحي والتأمل . وقد لا يصعب علينا مع ذلك الاعتراف بان عمل الوحي واللاشعور موقت وقليل بالنسبة لعمل التأمل والشعور ، فما الوحي الا هنيهات تبلغ فيها الفاعلية النفسية حداً أعظمياً ثم تهبط مكتسبة سرعتها من ذلك الصعود ، قال ري « ليس في اللاشعور من عوامل مسببة للاختراع الا ويوجد منها في الشعور . أليست هي الا التركيب والتخيل والتعميم والتجريد والعواطف والميول ! » قال غوت « .. عن هذه العوامل واتحادها ينشأ الاختراع المنسجم داعياً الى الاعجاب » ومما هو جدير بالذكر أن التأمل الشعوري هو المبدع غالباً ولكنما يحتاج الى القابلية اللاشعورية حتى يلد ابداعه . وهذه القابلية هي ميزة الذين يوحى اليهم .

٧٩ — شأن التخيل في الفن . في العلم . في الحياة العملية

79- Rôle de l'inspiration dans l'art dans lascience et dans la vie Pratique .

متن

١ — لا اختلاف في ان التخيل يلعب دوره في الفن بل إن الطبيعين انفسهم الواقعيين يضطرون اليه بانتخاب شيء من الواقع دون آخر ثم تفسير الواقع بالاضافة والنقصان .

٢ — التخيل يفيد العلم شريطة أن يكون مقيداً بضوابط العقل . الرياضي

وتخيل الاشكال ، الفيزيقي والفرضيات الكيماوي وتخيل التجارب. النفساني والتخيل السكولوجي . المؤرخ والتخيل التاريخي :

٣ ــ التخيل يفيد المخترع المطبق ، وبدون التخيل لا يستطيع أن يرسم خطة ما وما يقال عن الاختراع التطبيقي يقال عن الحياة العادية ولو بدرجة أقل . اذ أننا نتخيل ماذا نفعل غداً ولولا الامل بطل العمل . وبالتخيل تحلو لنا الحياة المقبلة على ان لا يقفز بنا الى مرحلة الاوهام التي يستحيل تطبيقها .

. . .

٨٠ ــ ماذا نقصد من قولنا الاشكال المنحطة للتخيل ؟ ما هي قوانينها (باريز)

80- Qu'entend-on par les formes inférieures de l'imagination ? quelles en sont les lois ? « Paris ».

متن

١ ــ نوعان للتخيل : ١ً) التخيل المنظم كتخيل العالم والفنان والمخترع العملي ٢ً) التخيل المنحط كاحلام اليقظة واحلام النوم والجنون .

٢ ــ فاحلام اليقظة هي الخيالات التي يتصورها الحالم مع نسيان الحاضر الذى هو فيه ، حياة خيالية يتابع فيها الصور كما يريد ويحب دون ان تردعها ضوابط العقل والواقع .

٣ــ واحلام النوم هي الخيالات التي تحدث حال غياب المؤثرات الحسية وبطلانها فيتسع المجال للصور الخيالية تلعب دورها في الميدان ، وقد تجر وراءها اذيالا من الاوهام فيظن الحالم بعد أن يستيقظ أن حلمه بادرة خير أو شر يتبعها التحقيق .

٤ ــ كما انها قد تجر وراءها أذيالا من الحركات قبل الاستيقاظ بفضل القوة المحركة للصور . فيتحرك الحالم وهو نائم ــ كأن يمشي في الغرفة أو يضرب أو يصيح .

٥ ــ ويشبه هذا التخيل تخيل التنويم الاصطناعي ، حيث يرى الحالم مايوحيه اليه المنوم بفضل القوة المحركة للصور الناشئة عن سماع الالفاظ (راجع الموضوع ٤٦)

٦ ــ وهناك أمراض نفسية يبقى فيها العالم مستمراً فى أحلامه النومية رغم انه يستيقظ صباحاً ويمارس استيقاظه . فيمر عليه النهار والليل والنهار ولا يزال في

حالة فكرية حالمة ، وفي هذه الحالة تظهر صفاتــه اللاشعورية وفاعليته البـاطنة ظهوراً واضحاً .

٧ — وليس الجنون الا هذا المرض النفسي مستمراً ، اذ تتتابع الصور في الشعور فيتخيل المجنون خيالاته دون ان يلتفت الى الواقع .

٨ — التخيلات السابقة على انواعها تشترك في صفة واحده هي «التتابع العرضي للصور بدون ضابط عقلي يوفقها مع الواقع » . ويبقى فيها تأثير الاحساسات سطحيا فى حالة اليقظة ومعدوما في حالة النوم فيخلو الجو للصور الداخلية . والنتيجة ان التخيل المنحط يتصف بعدم التكيف مع شروط الحياه النفسية وعدم الانتبـاه الارادي وخلل الفاعلية الفكرية وتزداد نسبة الخلل متدرجة من الاحلام الى الجنون . وان امتياز الانسان بنعمة الانتباه الارادي هو خير ضابط لابتعاده عن مهوى الجنون .

٨١ = الفرق بين التفكير والحلم . (باريز)

81 - Quelle difference y a-t - il entre penser et rèver ? « Paris »

متن

١ — التفكير هو ربط الافكار ربطا منطقيا ، الحلم هو ترك الافكار في مهب ريح التخيل .

٢ — الانتباه ضروري في التفكير ولا ضرورة له في الاحلام .

٣ — التفكير موضوعي ، أي هو توافق الفكر مع دنيا الواقع ، أما الاحلام فهي شخصانية تتكيف مع عالم الاماني والرغبات .

٤ — قد يميز التفكير بالخصوبة ويوصف الحلم بالجدب مع أن الاحلام قد تكون أحيانا اكثر خصوبة من التفكير ، مثال ذلك احلام الشعراء والفنانين .

٥ — التفكير هو عمل فكري اما الحلم فهو لعب فكري ، وهو لعب ضروري وارتخاء لابد منه لان الفكر لا يستطيع ان يكابد باستمرار مشاق الواقع المؤلم ، ولا شك ان للحلم خطره من حيث انه يرينا الحياة الحقيقية كريهة المنظر ويحرفنا عن الواقع فالافضل ان لا نسترسل في اتجاهه ولا نترك له زمامنا .

. . .

متن

١ – يقول الريبيون اننا لا نعرف نحن أفي يقظة ام حلم ؟ وما ادراك ايها القارئ هل انت ترى حولك ما ترى الآن هو حلم ام واقع ؟ – فالريبيون يصعب عليهم تميز الحلم عن الواقع ، مع انه سهل وعفوي .

٢ – لقد ميز ديكارت الحلم عن الواقع بقوله ان الافكار في الحلم لا تتتابع تتابعا منطقيا مرتبطا كما في اليقظة ، هذا الدليل ناقص ١ً) لان هناك احلاما مترابطة ٢ً) لان احلام اليقظة قد تشبه احلام النوم كل التشابه .

٣ – دليل آخر ، الحلم فردي . اما إدراك اليقظة فجمعي مشترك اي يشهد به جميع الحاضرين . ليس هذا الدليل قوياً ، لان الحالم قد يرى اناسا معه يرون ما يرى ، فالحلم شيء وتذكر الحلم شيء آخر .

٤ – دليل اقوى : اليقظة تعرف ان هناك حلما حدث ، اما الحلم فلا يعرف ان هناك يقظة ، وبتعبير آخر : اليقظة تميز بين الحلم واليقظة اما الحلم فلا يميز ذلك ويظن نفسه يقظة اخرى اثناء حدوثه .

٥ - يستيقظ الانسان بعد الحلم ، اما بعد اليقظة فلا يشعر بان هناك يقظة اخرى .

٦ - الادراك يفسر الحلم ، اما الحلم فلا يفسر الادراك . الحلم حالة اولى والادراك حالة ثانية ، وقد لوحظ ان الاكمه المولود اعمى لا يرى احلاما في نومه بصرية .

٧ - لا يستطيع ربط الاحلام بمجموع ادراكاتنا التجريبية ولا يتاح لنا ان ننسبها اليها كجزء من حياتنا الواقعية .

٨ - الذاكرة تميز الحلم عن الواقع لان صور الحلم ضعيفة مبهمة غامضة سريعة الزوال سطحية التأثير بينما صور الواقع قوية واضحة منيرة بطيئة الزوال عميقة التأثير . والحواس في حالة الحلم لا يبلغ فيها التأثير مبلغه التام .

• • •

٨٣ - ادرس الاحلام دراسة بسكولوجية (ستراسبورغ ١٩٣١) .

٨ – الانتباه

٨٤– كتب ريبو: « أن الانتباه بنوعيه هو حالة شاذة غير طبيعية مخالفة للشرط الاساسي في الحياة النفسية الذي هو التغير » إشرح وناقش هذه الفكرة . (برنسون)

84 - Ribot a crit: « L'attent ion, sous ses deux formes est un état exceptionnel, ano mal, en contra-diction avec la condition fonbamen-tale de la vie de l'esprit qui est le changement». Expliquer et discuter cette idée . (Besançon).

شرح

إ.ا كان الانتباه حالة شاذة بنظر ريبو فذلك لانه من طبيعة الحياة النفسية التغير المستمر . قال وليم جمس : الشعور تيار يمر باستمرار ولا يبقى على حالة واحدة . وقال باسكال أيضاً : « لاشيء يقف في أنفسنا ومهما حاولنا استبقاءه فانه يفلت من ممسكنا » . فلا عجب إذن أن يشبه الاخلاقيون والشعراء حياة النفس بجريان النهر ولا عجب كذلك أن يلح وليم جمس في تفصيل حادثة التغير في الشعور والانتقال من حال إلى حال .

فالانتباه يخالف القانون الاساسي على اعتبار أنه وقوف التيار في نقطة معينة مدة ولو قصيرة . وهو حالة شاذة كما قال ريبو لأنه جهد من جهة يخالف طبيعة الفكر المتحولة الشرود ومن جهة أخرى يخالف ميل النفس للكسل ، قال روستان : « الانتباه كفاح يعاكس طبيعة الفكر التي تطرح مسائل جديدة دوماً بعضها وراء بعض » .

والحق أن الانتباه إذا استمر يتعب . واستمراره مدين في الواقع إلى بذل جهود متكررة بثبات ومتجهة نحو فكرة خاصة تحاول دوماً الافلات ، لذلك ينبغي أن يكون هناك مصلحة مباشرة أو غير مباشرة تجدد النشاط والهمة .

والمعروف عن الطفل أن انتباهه عفوي ولا طاقة له إلا على الانتباه المثار بوسائل جذابة . ومثله العامي الذي لاينتبه إلا بمثل هذه الوسائل وخصوصاً التي تتصل بمصلحته الحيوية ورغباته الاقتصادية وحاجاته . أما الفكر العالي فيستطيع الانتباه مدة طويلة لانه يكتشف دوماً وجوهاً جديدة من جراء تأمله . وبهذه

المناسبات يخلق الانتباه الارادي انتباهات عفوية مع الاعتراف بانه على كل حال انتباه غير شائع لدى عامة الناس .

ذلك هو وجه الصواب في رأي ريبو . أما مبالغته من حيث اعتباره الانتباه حالة شاذة غير طبيعية ففي الأمور الآتية : ١ً) الانتباه يظهر ثابتاً في نقطة مع أنه في الواقع يقفز حول نقاط متقاربة قفزاً سريعاً متناوباً . فهو إذن لا يخالف القانون الاساسي القائل بالتغير . وهذه الوحدة في الانتباه لاتنافي الكثرة فيه . وهو اتجاه لا وقوف أي اتجاه الفكر لاثباته . لذلك قال أرسطو : الانتباه أشبه باتجاه الصيد (صيد الافكار) .

٢ً) يسود قانون المصلحة جميع الحياة النفسية ، فلا مجال إلى التفريق بين الانتباه وسواه من حوادث النفس ، الانتباه حادثة انتقاء ، والشعور ذاته حادثة انتقاء .

٣ً) تضطرنا الحياة إلى استعمال الانتباه الارادي كثيراً . فتارة أثناء العمل وقضاء الحاجة والمحادثات والمناقشات وتارة أثناء التفكير في تضحية مصلحة عاجلة حباً بمصلحة آجلة . وكل رجل عادي قادر على هذا الجهد اليومي ولو كلفه تعباً ، وقد ينهك لاشك ضعفاء الارادة بحيث يعجزون عنه لكن أقوياء الارادة والفكر يمارسونه كعمل طبيعي .

٤ً) ليس الانتباه إذن حادثة غير طبيعية **Anormal** كما قال ريبو . وينبغي أن نحتفظ بكلمة « غير طبيعي » للانتباه المرضي كالانتباه الجامد ذي الفكرة الثابتة والانتباه اللجوج والذهول الخ ...

٥ً) ليست الحياة النفسية مجرد تغير مستمر . فالى جانب مظهر الاستمرار المتغير نلاحظ مظهر الاستمرار الثابت . فهناك عناصر دائمة تؤلف هوية الشخصية من ميول وعادات وطباع وشعور بالانا . لذلك توصف الشخصية بالوحدة والدوام كما توصف بالكثرة والتغير . وهي الناحية التي لم يراعها التجريبيون ومعهم ريبو إذ اكتفوا بصفتي الكثرة والتغير .

٦ً) الانتباه يعمل دوماً في سبيل تكيف الحيوان ولا سيما الانسان مع شروط

الحياة فهو عفوياً أو ارادياً ينتقي دوماً ما يلائم هذه الشروط . فليس الانتباه إذن حالة خاصة بمصلحة وقتية .

٧ً) والخلاصة لا يجوز استعمال صفة « غير طبيعي » لحادثة الانتباه كما استعملها ريبو . فالانتباه حادثة طبيعية في كل كائن مفكر مهما كانت نسبة التفكير فيه قليلة أو كثيرة . وهو يلعب دوراً هاماً في الحياة العملية وقد يلعب دوراً أهم في التفكير العالي لان هذا التفكير يهتم بامور لا تخطر على بال العامي وتؤلف بالنسبة للعالم « مصلحة » . وأخيراً يعتبر الانتباه عاملا كبيراً من عوامل العبقرية .

. . .

٨٥ — كيف تشرح مفعول الانتباه ؟ (باريز ١٩٢٤) .

٨٦ — اشرح قول ريبو : « الانتباه يجري بالعضلات وعلى العضلات ». (ليون ١٩٢٤ ، اكس مارسيليا ١٩٣٣) .

٨٧ — هل الانتباه إلا تكيف عضوي ؟ أليس هو قبل كل شيء تمركز فكري ؟ (استانبول ١٩٣٣) .

٨٨ — النظر والانتباه : تشابهها وافتراقهما . (ستراسبورغ ١٩٢٧) .

. . .

٨٩ : الذهول .طبيعته أسبابه النفسية . (نانسي)

89 - La distraction* ; sa nature, ses causes psychologiques « Nancy » .

متن

١ ـ للذهول معاني مختلفة . فقد يطلق على الذين لا يقدرون على الانتباه الارادي ويطلق على الذين يغرقون في بعض الافكار (كبعض العلماء) فلا يلتفتون إلى غيرها . قال ريبو : هناك ذاهلون مشتتون وذاهلون غارقون .

٢ ـ والمعنى الصحيح للذهول هو النوع الاول ، وهو تشتت الذهن وعدم قدرته على الانتباه لانتقاله المستمر من نقطة إلى أخرى دون ثبات .

٣ ـ أسباب الذهول هي : تنقل أحوال الشعور بخفة ، كسل الفكر وارتخاؤه ، ضعف الارادة ، كثرة المشاغل الخارجية .

٤ ـ يقوى الذهول العادي في بعض الناس فينقلب إلى ذهول مرضي وذلك في

حالة ضعف الانتباه ضعفاً كلياً aprosexie . وهي حالة البليد الاحمق Idiot .

. . .

٩٠ ـ كيف أتيح القول إن الانتباه يغني الادراك ويفقره بآن واحد (باريز ١٩٣٢) .

90 - Comment a-t-on pu dire a' la fois que l'attention enrichit la perception et qu'elle la restreint ? « Paris , 1932»

شرح

١ـ مفعول الانتباه: الانتباه هو تمركز الفاعلية الذهنيـة في شيء دون أشياء أخرى . وسبب هذا التمركز هو أن ساحة الشعور محدودة لاتتسع لجميع الاشياء معاً فلا بد من الانتقاء وإهمال مالايفيد. وينتج عن ذلك مفعول مضاعف :١ً)يضيق الشعور مغلقاً نوافذه الجوانبية . ٢ً) يحصر بصره في نقطة هي النقطـة النيرة بالنسبة إليه ـ وبهذا المعنى قيل إن الانتباه يفقر الادراك ويغنيه . أي يضيق الادراك ولكنه يريه النقطة المضيئة غنية بتفصيلاتها .

٢ ـ الانتباه يغني الادراك: يرى (مين دوبيران) أن الانتباه لا يزيد شدة الاحساس ولكنما يوضح الادراك . مع أن جهد الانتباه يجعـل العضلات متوترة فيجعلها أكثر حساسية وأسرع تأثراً . مثلا الاصغاء مدين إلى توتر عضلات الاذن وانتصاب الرأس والجسم .

على أن هذا التكيف العضلي الحركي ليس هو الكل في تقوية الادراك . فاذا كان الانتباه يغني الادراك فلانه يسبب تكيفاً فكريا ويوجه الذهن ويجعله في وضع خاص قابل لتلقي نوع معين من التمثلات دون سواهـا . قال وليم جمس « لاندرك عادة إلا ما هو مرسوم في خطتنا إدراكـه قبل أن نبدأ بالادراك ". فالصور تأتي لانقاذ الاحساس فيدخل في أذهاننا مفهوماً مميزاً » . وهكذا تكون التمثلات السابقة مهيأة للتدخل أثناء الانتبـاه فيلتقط الذكر بسرعة وبشدة وبوضوح ادراكات غنية .

٣ ـ الانتباه يفقر الادراك (يضيقه) غير أن مقابل هذا الغنى نـلاحظ ضيقاً في ساحـة الشعور تلك الساحة المحدودة . فاذا كنـا أمام رواية تمثيلية نرى كثيراً من الحركات والالوان والصور والممثلين . لكن شعورنا لايلتقط

كل ما هو أمامه ولا يستطيع ذلك إذا حاول . فيضطر الاقتصار على مركز الموضوع وترك الفرعيات تتساقط حوله وفي اللاشعور . وهنا تبدو عملية الانتقاء أي الانتباه ، بتثبيت الحواس في نقطة معينة . فالانتباه أشبه بمنظار لا يسمح بدخول جميع الاشعة إلا الاشعة الواردة من الشيء المستهدف .

ومن المبالغة أن نقول مع ريبو إن الانتباه وحيد الحادثة النفسية ، فقد لاحظ علماء النفس المحدثون أن هناك انتباهاً موجهاً بآن واحد لكثير من الحوادث فتارة يكون مزدوجاً وتارة مجزأ بحيث لا تعيقه الكثرة . وفي حالة الازدواج تظهر له الحادثتان المتوازيتان في ثوب حادثة واحدة أما في حالة التجزئة فلا يخلو من القفز والانتقال السريع .

نتيجة والنتيجة أن الانتباه يفقر الادراك بترك عناصر كثيرة موجوده في الحوادث والتقاط عناصر معدودة ويغني الادراك باضافة معطيات إدراكية إلى معطيات التجربة الحالية . ومن المفيد أن نلاحظ أن فقر الادراك ليس ذلك الفقر الجدب الخالي إنما هو « ضيق » يقصد منه قلة المساحة . وتعويضاً لهذه القلة تزداد كثافة الادراك ويبعد عمقه ويغمق لونه ويطيب طعمه . والانتباه أخيراً هو ملكة أساسية ضرورية لكل تركيب ذهني واداة قوية من أدوات التفكير العالي . قال وليم جمس « مقدرة الانسان على الانتباه هي منبع الارادة والحكم والشخصية . وإن الاعتناء بتنميته هي المثل الاعلى الممتاز لكل تربية » .

. . .

٩١ ـ هل صحيح كما يدعي هلفثيوس « أن جميع الفوارق الفكرية الكائنة بين الناس إنما هي ناشئة عن الانتباه » . (بوردو ١٩٣٤) .

. . . .

٩٢ ـ أهمية الانتباه في الحياة الفكرية والحياة الاخلاقية .

92 - Importance de l'attention dans la vie intellectuelle et dans la vie morale.

متن

١ — أهمية الانتباه في الحياة الفكرية :

١ً) يوضح الادراكات وينيرها . وبالنتيجة يقوي الانسان ويسهل عليه تكيفه مع صعوبات الحياة .

٢ً) يجعل الذاكرة كالنقش في الحجر (مونته ني) .

٣ً) لابد منه في كل عمليات التأليف الذهني . وهو شرط ضروري للرقي الفكري وتقدم المعرفة ونضوجها ودقتها . وهو صفة من صفات الاديب والعالم الرئيسية .

٢ — أهمية الانتباه في الحياة الاخلاقية :

١ً) النظري يلد العملي . فالانتباه يخلق أفكاراً أخلاقية جديدة محكمة . وبصفته الانتقائية ينتخب المبادىء الاكثر ملاءمة مع الحياة . وهو دوماً يراقب تطور الشروط التي ينبغي أن تؤثر في تطور الافكار والعواطف . ولا عجب فان الافكار والعواطف قوى توجه الانسان والمجتمعات .

٣ — نتيجة .

قال جمس : الانتباه هو الذي يخلق السادة في كل قوم وفي كل اختصاص .

٩ — التجريد والتعميم

٩٣ — هل هناك تفكير بدون صور . (ليل ١٩٣٢)

93- Y a-t- il une pensée sans image? (Lille, 1932).

متن

مسألة التعميم تثير مسألة علاقة التفكير بالصورة ، فهل هناك تفكير بدون صور ؟

١ — النظرية المدرسية : كثير من الفلاسفة يعتمدون علازمة الصور للتفكير.

١ً) أرسطو : لا تفكير بدون صور .

٢ً) بوسويه : « لايتاح للفهم أن يأخذ فكرة عن المثلث او الدائرة بدون أن يتصور واحداً من المثلثات أو واحدة من الدوائر . وقد يجسد كثيراً من الافكار الروحانية المجردة فينظر إليها كأنها محسوسة مشخصة . مثلا فكرة الاله وفكرة الروح نفسها».

٣ً) يدعي التجريبيون « بركلي ، هيوم ، ستوارت مل » أن الفكرة العامة يرافقها دائماً صور ، سواء فردية أو مركبة أو خصوصاً صور سمعية شفوية .

٤ً) اثبت ريبو وجود الصور في الفكر بطريقة المقياس . وقال أيضاً «إن افتراض التفكير النقي الذي لا تلازمه صور أو كلمات هو افتراض خيالي قليل الاحتمال جداً ولا برهان عليه » .

وتظهر مبالغة الآراء السابقة في ملاحظتنا أن التفكير إذا احتاج الى الصور فليس معنى ذلك أنه يرتدي دوماً ثياباً حسية . بل إن الرداء الحسي قد يعيق عمله كثيراً . إن الفكرة تفلت من الصور والالفاظ وإن وراء هذه كما قال هاملتون « تفكيراً كامناً » مجرداً قد يخرج أحياناً ولا رداء له .

٢ — نظرية أخرى : وهي التي تثبت وجود تفكير بدون صور . وانصارها « بينه » في فرنسا ، ومدرسة «فرزبورغ» في المانيا، وقد استندوا إلى طريقة الملاحظة الداخلية والتجربة وقبلوا بوجود التفكير وراء الحس ، قال بينه « إننا نفكر دائماً

فيما وراء الحس وإننا لنشتري فكرة قيمتها مئة ألف من الفرنكات بصور قيمتها أربع نحاسات » .

ولا يجوز التطرف في هذا الرأي مع أنصاره لاننا لاننكر ضرورة الصور كدعامة دائمة للتفكير ، وربما كانت نسبتها في أكثر الاحيان أكثر مما ادعى « بينه » .

٣ — والنتيجة أن التفكير يسير جنباً إلى جنب مع الصور ويرتكز عليها حجراً بعد حجر . إلا في التفكير العالي الاستثنائي الذي يطير في الذهن طيراناً « على لمة أفلاطون » . فان الصور تغيب عنه فيعتقد حينئذ أرسطو بالتفكير الذي بدون صور .

. . .

٩٤ — المفهوم والصورة . « مونبلية ١٩٣٣ » .

. . .

٩٥ — علاقة التجريد والتعميم أحدهما بالآخر وفروقها . «باريز ١٩٢٥» 95 - Rapports et différences entre l'abstraction et la généralisation (Paris1925)

متن

١ — التجريد هو فصل مالا يتاح وجوده مفصلا على انفراد ، والتعميم هو جمع صفة أو عدد من الصفات في فكرة واحدة ، وبين العمليتين علاقات متينة وفروق.

٢ — العلاقات :

١ً) التعميم يحوي التجريد ولا يجري بدونه ، إذ لا يجوز تعميم صفة من الصفات على أفراد بدون تجريد هذه الصفة منفردة . ومن جهة أخرى حين نضم الافراد في دائرة واحدة نضطر إلى تجريد صفاتها التي ليس لنا شأن معها .

٢ً) التجريد يحوي التعميم ولا يجري بدونه . لاننا إذ نجرد صفة من الصفات قد ننظر إليها « كفكرة تامة » . لاشك أن هناك تجريداً منحطاً يحلل صفة من صفات الشيء كلون الورقة الابيض ولمسها الرقيق ، وبهذا المعنى يقال إن الحواس آلات للتجريد . إلا أن التحليل بالنسبة للتفكير هو التجريد نفسه ، أليس اللون الابيض « البياض » إلا فكرة عامة فهمناها بالتعميم ثم استطعنا تجريدها ! .

٣ — الفروق .

على أن امتزاج التجريد والتعميم أحدهما بالآخر لا يمنع التفريق بينهما بخصائص . فالتجريد هو فصل صفة ملتصقة بصفات أخرى دون الاهتمام بما إذا كانت هذه الصفة قابلة للتطبيق على أشياء أخرى أم لا . فالتجريد لا يلد التعميم ، ولكي نعمم نشعر بعمل فكري آخر جديد . هو تطبيق الصفة المجردة على افرادها .

. . .

٩٦ — هل صحيح كما قال تين إن الفكرة العامة والمجردة هي اسم بدون مسمى واسم فقط ليس إلا ؟ « بواتيه ١٩٢٦ » .

. . .

٩٧ — التجريد وشأنه في المعرفة والعلم «ديجون ١٩٢٨»

97 - L'abstreation et son rôle dans la connaissance et dans la science «Dijon1928»

متن

١ — يتدخل التجريد في اكتساب المعرفة وممارسة كل عملية فكرية حتى الاكثر ابتدائية .

١ً) فهو يتدخل في ممارسة الحواس . كل حاسة تجرد صفة من صفات الشيء . لونه ، رائحته ، كثافته صلابته الخ .

٢ً) الشعور التأملي يفصل ويميز مختلف العمليات الفكرية والحوادث النفسية .

٣ً) العقل ليس إلا تمييز المبادئ الاولى والمقولات ، أضف الى ذلك تجريد المعاني العالية كالضروري والمطلق والعام .

٤ً) الانتباه نفسه تجريد من حيث اعتباره حادثة انتقاء وتمركز .

٥ً) التعميم يفترض التجريد ويحويه كما رأينا .

٦ً) اللغة غنية بالتجريدات ولا مجال الى التكلم بدون تجريد . الالفاظ قوالب المعاني اي الافكار العامة .

٢ — يتدخل التجريد في العلوم .

فهو شرط ضروري لكل علم . لان نقطة المسير في العلوم هي الافكار المجردة « مثلا : فكرة المقدار ، الكم ، الحياة ، الخير ، الواجب . الحق . الخ . » وقد قيل لا علم إلا بالكليات . ونضيف أن هذه الكليات مدينة إلى التجريد .

١٠ – الاشارات واللغة

٩٨ – بأي معنى وبأي مقياس يجوز القول إن ملكة اللغة فطرية في الانسان؟ « باريز ١٩٣٣ » .

98 - En quel sens et en quelle mesure peut-on dire que la faculté du langage est innée à l'homme ? « Paris, 1933 » .

شرح

١ـ ملكة اللغة — اللغة مجموعة من الاشارات تعبر عن الاشياء الخارجية والداخلية « أي الحوادث النفسية » . وقد تكون اللغة خطابا « مجموعة أصوات » وتكون كتابا « مجموعة رموز خطية » . والخطاب هو اللغة المتلائمة مع طبيعة الاجتماعات وهي أصل اللغة الكتابية . وسواء كانت اللغة خطابا او كتاباً فهي لغة راقية بالنسبة إلى اللغة الابتدائية ذات الحركات والاصوات والهيجانات ، فهذه منوطة بافعال منعكسة وتلك متصلة بالدفاع ، ومرادنا معرفة فيما إذا كانت اللغة الاخيرة فطرية أم لا ؟

٢ ـ النظريات الفطرية — فمن الفلاسفة من يقول بفطريتها ويرجعها إلى غريزة خاصة فوق الطبيعة Surnaturelle « على رأي بونالد » أو طبيعية Naturelle « على رأي رنان » . إن أمثال هذه الفرضيات عقيمة من شأنها تعقيد المسألة اكثر من حلها . ومن الصعب أن نعتقد بأن الانسان استطاع التكلم قبل أن يكون قد استطاع التفكير . وبعيد جداً أن يكون الكلام سابقاً للفكر فالاقرب أن يكون الكلام والفكر متواقتين (١) إن لم يكن الفكر سابقاً بقليل للاصطلاح اللفظي . أضف إلى ذلك أن نظرية (ماكس مولر) في إرجاع اللغات التي من أسرة واحدة إلى جذور أولية طبيعية هي نظرية في حيز الافتراض . ومن المفيد أن ندرس فطرية اللغة من وجه آخر .

---

(١) نستعمل أحياناً اصطلاح متواقت أو(مواقت) للدلالة على Contemporain بدلا من الاصطلاح الذي يستعمله بعض المؤلفين في التاريخ (المعاصر) . ونرى إن كلمة (مواقت) في البحوث النفسية تدل على المعنى دلالة أدق .

٢ — اللغة العفوية : فهناك لغة عفوية مرتدية رداء انفعالياً ، أو كما قال دولاكروا (لغة غنائية هيجانية قادرة على التعبير عن العواطف والاوضاع النفسية المختلفة) . فيجوز اعتبار الاصل البيولوجي كمنبع غريزي لابتكار الرموز . وإن استبدال المؤثر بمؤثر آخر في إحداث العمل المنعكس نفسه (كما وصفه باولو) يوحي الينا فكرة الرمزية الفطرية الناتجة عن وحدة العمل المنعكس من حيث صورته . فاللغة الحركية ، واللغة الهيجانية ، واللغة الصوتية ، واختلاف علائم الوجه ، كل ذلك يدلنا على عناصر فطرية في اللغة لايجوز انكارها . ونراها في الطفل والابتدائي حتى وفي المتمدن بمقياس أصغر . واعتباراً من هذه الاصول الانفعالية يجري نمو اللغة تدريجاً .

٣ — نضوج اللغة : على انه لايجوز اعتبار المظاهر الانفعالية لغة بمعناها الحقيقي فهي لغة في القوة لا لغة في الفعل . وتحتاج إلى مرحلة طويلة لتصبح لغة في الفعل . وهذه المرحلة هي الاتفاق الاجتماعي والتواطوء الذي بواسطته يكتسب صوت معين ورمز معين معناه المعين ويعبر عن حالته المعينة . وقد أيد ذلك مين دوبيران وبرغسون وكثير من النظريين في ملاحظاتهم أن مرحلة « الرمزية » هي المرحلة التي حدثت فيها إضافة المعنى إلى الاشارة الطبيعية . فلحدوث اللغة إذن شروط ينبغي ان تتحقق.

١ً) فينبغي أولا أن تتكرر الاشارة وتحيا بمرافقة مدلولها . فقد يقودني مرشد في سياحة على جبل ويشير إليّ أن هناك خطراً فلا أفهم عليه ولكنني فى المرة الثانية بعد أن لاحظت الخطر سرعان ما اتخيله كلما أعاد على مرآي الاشارة .

٢ً) ان تكتسب الاشارة صفة عامة وتكون مفهومة من المجتمع المحيط .

٣ً) ان تكتسب معنى فكريا وتستطيع التعبير عن فكرة من الفكرات .

والخلاصة إن العناصر الفطرية في اللغة هي المواد الاولية الخام التي يراها الانسان تحت تصرفه ثم يستعملها الفكر اصطناعاً واكتساباً للتعبير عن خواطره بداعي ضرورات الحياة الاجتماعية .

• • •

٩٩ — بأي شيء يكون التفكير مديناً للغة . « باريز ١٩٣٠ » .

99 - Qu'est-ce que la pensée doit au langage ? « Paris, 1930 » .

شرح

١ — التفكير واللغة رغم أن التفكير يظهر مستقلا عن الكلمات والاشارات فانه لايحيا بدونها . فهي له عماد ومسند . وقد نريد التعبير عن خاطر فلانجد الكلمة فنقف حتى نجدها أو نضطر إلى استعمال جملة تفسرها . وقد نعيا في حال فقر اللغة فتبقى الفكرة غامضة بالنسبة للسامعين . ثم إذا اعتبرنا العجز عن التعبير حالات استثنائية نرى اللغة تسير جنباً إلى جنب مع التفكير معترفين في الوقت نفسه أنها كثيراً ما تشوه التعبير ولا تؤديه بامانة .

٢ — اللغة أداة التعبير اللغة وسيلة ممتازة للتعبير . واستعانة الانسان أحياناً بالحركات والاصوات وعلائم الوجه لتعبير عن ضميره « لاتقلل من شأن اللغة بل تجعل اللغة واقفة موقف المقصر فيضطر الفكر البشري إلى ايجاد لفظ لكل حالة نفسية مهما عمقت (١) . فاللغة بالحالة العامة هي الاداة الصحيحة الدقيقة للتعبير إن لم يكن بين مختلف اللغات فعلى الاقل بين أهل اللغة الواحدة . وهي ليست في الواقع إلا مجموع الاشارات والرموز الحادثة داخل جماعة معينة بالتوافق مع حوادث مادية ونفسية ، موضوعية وشخصانية . وقد ذكر (دولاكروا) في كتابه « اللغة والفكر » أن المظهر الثاني للتسلسل الآلي في تكون اللغة هو انضمام الفكرة إلى اللفظ وانضمام المدلول إلى الكلمة ، فالتفكير يستند الى اللغة دون أن يمتزج بها كل الامتزاج ، مما يقودنا إلى الاعتراف بان اللغة وحدها منفصلة تشبه شيئاً فارغاً لاطعم له . فهي أداة للتعبير وحسبها وظيفة إبراز الفكر إلى حيز السمع والنظر والحس .

---

(١) ونضيف إلى ذلك أن الاستغناء عن هذه الاستطالات الزائدة (أي الحركات والاصوات التي نلاحظها خصوصاً في أفراد مجتمعنا) أصبح أمراً ضرورياً في مثل هذا العصر الذي تسود فيه الرزانة والهدوء والتعبير المطمئن . وبالمقابل تزداد اللغة ثروة ونمواً حين يضطر الفكر إلى اجتناب الاستطالات بوضع ألفاظ محكمة تؤدي المعنى باقصر طريق . (المترجم) .

٣ – التفكير المضمر والتفكير البارز على أن عدم امتزاج اللغة بالتفكير لا يمنع اللغة من أن تتكيف مع التفكير . فهي تكتسب منه المرونة والحيوية كما يكتسب هو منها الثبوت والتعلق المنطقي . والتفكير المضمر العاري عن اللفظ هو تفكير مظلم ضئيل سرعان ما يزول إذا لم يبحث عن قالب يرتديه ويقيه من عوامل البلى . وبهذه القوالب المرنة يتاح للتفكير المضمر أن ينقلب إلى لغة بارزة نلمسها ونحسها ونستطيب مذاقها . والعلم إنما هو اللغة المنظمة المرتبطة المحكمة .

٤ – تبادل اللغة والفكر فاللغة اداة للتعبير وأداة أيضا للتنظيم والرقي . أضف إلى ذلك أنها وسيلة لاسراع التفاهم كما هي الحال في استخدام العبارات الاجتماعية المنتشرة لدى طبقات الناس على اختلافهم . فليس على الفرد إلا أن يقلد تقليداً مباشراً ما يسمع فيلفظه في مناسبته . أما في أحوال الكتابة الراقية والخطابات المنطقية والسياسية فيحتاج الفرد إلى انتقاء اللفظ الذي يؤدي المعنى تأدية دقيقة حيث يلعب التفكير الباطني دوره ليجعل التفكير الشفهي والكتابي متفقاً مع المقصد .

٥ – نتيجة والخلاصة ليست اللغة مستقلة عن التفكير فهي موافقة له وبينها صلات ومودة . وهي أداته المخلصة وإخلاصها مدين إلى تعمقه ودرايته . وبفضلها تنتقل دنيا الشعور الداخلي إلى دنيا الحس الخارجي . وهي والتفكير كلاهما خاضع إلى القواعد المنطقية .

• • •

١٠٠ – يقال تارة إن التفكير بعيد عن أن تلبيه اللغة وتارة إنه باللغة يتحدد ويبرز من أبعد اعماقه . قابل بين هذين المفهومين (برنسون ١٩٣٢) .

١٠١ – باي معنى وباي مقياس يصح القول إن اللغة ثبوتها وانفصاليتها وعموميتها تعيقنا عن الاستمساك بجوهر المعنى وتخلق مسائل في الظاهر لا تحل . (غرنوبل) .

• • •

١٠٢ — شأن اللغة في تكون الافكار المجردة والعامة (باريز)

102 — Rôle du langage dans la formation des idées abstraites et générales (Paris) .

متن

اللغة تلعب دورها الهام في تكون الافكار العامة والمجردة .

١ — فالفكر يستخرج من الاحساسات والصور معاني ومفاهيم . الا أن هذه العملية لاتنتهي بنتيجة لولا استعمال الالفاظ التي تغلف المعنى وتكسبه حياة وبقاء. فمن السهل إذن ان نعترف باللغة كاداة للتجريد والتعميم .

٢ — ولما كان التجريد هو فصل صفة عن مجموع صفات فان هذا الفصل يحتاج إلى وعاء جديد يحوي ما انفصل .

٣ — وكذلك التعميم فهو جمع صفات مشتركة في وعاء واحد هو النموذج . فبفضل اللفظ نجمع ما قد يكون عرضة للتشتت . والفكر يمل تكرار عملية التعميم في كل مرة يحتاج اليها فالافضل إذن أن يهيء ذلك مرة واحدة ويسجله في قاموس اللغة ويستريح .

٤ — قال هاملتون : « الاشارات ضرورية لاكساب الفكر ثباته وتقدمه. وهي تفيدنا الخطوة بعد الخطوة فتجعل التقدم مستمراً أشبه مانكون بالجيش الغازي الذي يرتكز في هجومه على حصون يقوى بها وكلما تقدم بنا واحداً فالكلمات هي حصون التفكير » .

٥ — ولا تقتصر الكلمات على تثبيت الفكر . بل تفيد في إشراك الغير بالتفكير فيشع من فرد إلى أفراد عديدين كما يشع النور إلى جميع الجهات . فهي سبب من أسباب الرقي الفكري .

٦ — ويؤخذ عليها مع ذلك أنها لا تمهر دائماً في التعبير عن جميع التفكير. فهي قليلة الامانة من هذه الجهة . والفكر سابق للكلمات ولا يخلو التعبير اللفظي من تشويه التفكير الباطني في كثير من الاحيان .

٧ — بعد التحفظات السابقة نعترف بفائدة اللغة في العلم والعمل والحياة الاجتماعية ، وهي تقوم مقام الصور المشخصة وتشبه النقود من حيث كونها وسيلة التبادل الفكري .

١١ – الحكم والاعتقاد

١٠٣ – بم يختلف الحكم عن تداعي الافكار وبم يحتاج إليه (إكس ١٩٢٨)

103 En quoi le jugement differe-t-il de l'association des idées ? et en quoi a-t-il besoin d'elle ? (Aix,1928).

متن

١ – الحكم هو اثبات علاقة بين مفهومين . النظرية التداعية ترجع الحكم إلى تداعي افكار .

٢ – التداعي ميل شخصاني به ينتقل الفكر من فكرة إلى أخرى عن غير قصد . أما الحكم فهو ربط مقصود منطقي . هو تثبيت علاقة « موضوعية » بين فكرتين .

٣ – التداعي في الحكم عمل ثانوي فهو يقدم جملة عناصر . أما فاعلية الحكم فهي التي تنتقي من هذه العناصر ما يناسب .

٤ – فلا يجوز إرجاع الحكم إلى تداعي . فهو ذو كيان خاص وهو أصل المحاكمة ويجوز اعتباره وحدة منطقية منها تتألف العمليات الفكرية .

. . .

١٠٤ – الفكرة والحكم . كيف تفهم علاقاتهما « باريز ١٩٣٠ » .

104 - L'idée et le jugement ; comment en concevez-vous les rapports ? « Paris, 1930 » .

شرح

١ – ليس بالامكان تفريق الفكرة والمفهوم عن الحكم . فالفكرة هي مجموعة صور مربوطة ربطاً محكماً . وهي بتعدادها وتحديدها العناصر الاساسية بدقة في كل تمثل فكري تحتاج إلى الحكم ولا تسير خطوة بدونه وكل مفهوم بدون الحكم (مثلا مفهوم العدل) إنما هو معنى فارغ لا نفهمه إذا لم ننسب إلى مركزه صفات معينة « تؤلف معنى العدل مثلا » . أضف إلى ذلك أنه لامجال إلى التفكير بمفاهيم منعزلة منفصلة فتحتاج إلى روابط حكمية .

٢ ـ ودراسة العلاقات بين الفكرة والحكم تبين لنا كيف يتاح للتفكير أن يكون سيد نفسه . فهو في وقت واحد يؤلف المفاهيم والفكرات بالتأمل ويؤلف الاحكام والانتقاد وضبط العمليات . ورب قائل يقول إننا نتلقى المفاهيم تامة منتهية عن طريق اللغة التي نسمعها فنقلد تفكير السابقين . نعم ولكن قبولنا في الواقع لا يخلو من تمحيص وإعادة نظر بدافع الحاجة والتجارب المختلفة التي تضطرنا إلى الاضافة والتعليق والتنقيص . وبذلك تنقلب الفكرة من معناها المحيطي المبهم إلى معناها الرقيق الواضح ويسهل تمييزها عن سواها .

٣ ـ وهي تقبل التصحيح وتقع تحت عوامل التعديل باستمرار مادام التفكير الانتقادي بآلته (أي بالحكم) لايتوانى عن التصفية بالتجريد والتعميم . وينتهي به الجهد إلى الثبوت في الوضوح . ولما كانت الفكرة في الواقع حزمة أحكام مهيأة أو مستعدة للتهيوء فلا مجال للتفريق بين الحكم والمفهوم . المفهوم مجموع احكام والحكم لايتنقى إلا بالمفاهيم . وإذا ما طرأ على الفكرة تعديلات يحصل رقي التفكير وهو رقي يجري من المبهم إلى الواضح ، من الناقص إلى الكامل ، ومن الجزئي إلى التام المنطقي العلمي . وهذا ما جعل بعض المفكرين أمثال ريبو يقولون بتطور الافكار العامة ، ذلك التطور الذي يجري من الاشكال الابتدائية إلى الاشكال العالية .

٤ ـ والحكم من جهته ينتسب إلى جملة تمثلات سواء كان تركيباً أو تحليلا . فمادته هي الافكار والمفاهيم والحدود . وقد قال أحد علماء النفس المعاصرين « إن الحكم تركيب للحدود يجمعها ويفرقها بآن واحد » . والفكر حين يحكم يفصل جزءاً من مجموعة أجزاء متراصة وينسب جزءاً إلى مجموعة أجزاء متراصة . فيثبت وينفي ويميز العناصر الثابته . وفي كل حكم يكون الشخص الحاكم ومعرفته وتجربته كل ذلك مقيد معاً وتحت التصرف . وبذلك تبدو أهمية الحكم .

٥ ـ وقد أصاب « كنت » حين قال « التفكير هو الحكم » . لان التفكير ليس مجموعة عناصر منفصلة إنما هي مفاهيم وافكار ممتزجة كل الامتزاج بالاحكام سواء في تكوين الفكرة العامة والمفهوم او في ربط الافكار والمفاهيم بعضها مع بعض .

وليس ثمة تفكير بمعناه الصحيح إذا لم يتخذ من الحكم أساساً ، بل إن الفكرات العامة لتكتسب معناها بفضل الحكم الذي ينسب إلى كل فكرة عناصرها مع تحديد مداها وينفي عنها ما سواها . وبكلمة واحدة إن الفكرة والحكم لا يفترقان iséparable .

. . .

١٠٥ — هل ينتمي الحكم إلى الشعور الفردي وحده أم يخضع إلى شروط اجتماعية كذلك ؟ « مونبيليه ١٩٣٠ » .

١٠٦ — باي معنى يقال إن « التفكير هو الحكم » ؟ « الاسكندرية ١٩٣٣ » .

١٠٧ — مارأيك في هذا التعريف « الحكم هو الفصل والتمييز «ديجون ١٩٣٣»

. . .

١٠٨ — ماهي العوامل النفسية للاعتقاد بمعناه الواسع «باريز ١٩٢٤ »

108 - Quels sont les facteurs psychologiques de la croyance « au ens large du mot » ? (Paris, 1924) .

شرح

معاني الاعتقاد — لكلمة الاعتقاد معاني عديدة . فهي بالمعنى الواسع « وهو المعنى الذي نفهمه هنا » تدل على قبول فكرة ما واقرارها كفكرة صائبة او خاطئة . وقد تدل أحيانا بمعناها الضيق على قبول فكرة ما واقرارها كفكرة صائبة عن طريق الايمان لا عن طريق البداهة الصريحة . وفي هذه الحال يختلف الاعتقاد عن الاعتقاد العلمي المبني على براهين ظاهرة . وفي جميع الاحوال لا تخلو كلمة الاعتقاد من روح الحكم : أي اثبات شيء ونفيه .

النظريات المتضاربة في بحث الاعتقاد — يرى الفكريون أن الاعتقاد مبني على أسس فكرية خلافاً للاراديين الذين يرونه عملا إراديا . وقد يبنيه فلاسفة آخرون وهم البراغمتيون ، على أسس النجاح فيرون الفكرة الصائبة هي الفكرة المكللة بالنجاح عملياً . وفيما يلي ندرس وجه الصواب في كل نظرية وموضع نقصها .

نصيب الارادة — فالنظرية الارادية تقول بلسان ديكارت أن الفكر يقترح ويعرض عرضاً والارادة تبت وتجزم . فالفكر يقدم تقاريره أما الارادة هي التي تحتم الحكم . هذا هو رأي ديكارت . ووجه الصواب فيه أن الارادة تتدخل في توجيه الانتباه

هذه الجهة وهذه الجهة . وكل حكم لا بد له من عملية الانتباه التي هي عملية إرادية أضف الى ذلك أن الارادة تلعب فى تدخلها دوراً تجعل فيه للمصلحة والعواطف والاهواء شأناً في إدارة الاعتقاد وكثيراً ما يخطيء الحكم من جراء هذا التدخل ، أما موضع الضعف فيه فهو أننا لا نعتقد دوماً كل ماتريد الاعتقاد به . لان بعض الحقائق تفرض نفسها فرضاً علينا فلا نستطيع إلا أن نقبلها كما هي على موضوعيتها . مثلا الحقائق الرياضية .

نصيب الفكر لذلك رأى الفكريون أن الاعتقاد هو عملية فكرية محضة . يقول سبينوزا « ليست الافكار محرومة من الفاعلية . فهي تحظى بقوة الاقناع سلباً وايجاباً ولا تخرج الارادة عن سلطة الافكار وإنما تنضم إليها اثناء حدوث الاعتقاد» مما ينتج عنه أننا لسنا أحراراً في الاعتقاد وعدمه . ولقد قال مالبرانش (إن أفكاري تقاومني) دلالة على قوة الافكار وفاعليتها . ويؤيد هذه النظرية الاعتقاد العلمي المبني على التجارب والبراهين حيث اشترط المناطقه للموضوعيةالعلمية شرطاً أساسياً هو « اللاتغرض » وعدم التحيز . أما في الاحوال العامية فلا تصح هذه النظرية إلا بمقياس أصغر وقد يصغر إلى حد بعيد. ذلك لان الانسان حيوان ذو غرائز وميول وعواطف . فنادر جداً أن نجد فيه (فكراً محضاً) أي (فكراً ليس فيه إلا الفكر) . لان الفكر إذا كان آلة للمعرفة فهو أيضاً آلة للحياة وأداة العيش . فهو ذو وظيفة حيوية يوجه أعمالنا تبعاً لغاياتنا . فلا يبرأ من الأثرة والمصلحة تارة ولا من العواطف والاهواء تارة أخرى . ويظهر ضعفه خصوصاً في الاعتقادات الدينية والسياسية والاقتصادية . لانه لا يبحث دوماً عن (الحق) بل كثيراً ما يخلط بين (الحق والخير) . يظهر لنا هذا الفرق بوضوح بين الاعتقاد بالحقائق الرياضية والاعتقاد بأوامر الاله أو باوامر الواجب الاخلاقي . فالاعتقاد الاول يتم بالعقل والعقل وحده أما الاعتقاد الثاني فيتم كما قال افلاطون بالروح كلها وبالنفس جميعها . فموضع النقد إذن في النظرية الفكرية هو إعطاؤها السلطة التامة للفكر أما وجه الصواب فهو عدم خلو الاعتقاد من عوامل فكرية ، خلافاً لرأي الايمانيين الذين يرجعونه إلى عوامل عاطفية . أليس الاعتقاد العاطفي نفسه إلا مؤلفاً من تسلسل أفكار وأحكام ؟

تصيب العمل والذي يلفت النظر إلى شأن العمل وأن الفكرة آلة للحياة ، هو مذهب الراغمتين . فالنجاح في كلا الناحيتين العملية والنظرية يثبت الاعتقاد . الدين الناجح هو الدين الصحيح والنظرية الناجحة هي النظرية الصحيحة . بل إن الموضوعات والمبادئ المديرة للمعرفة إنما هي كما قال « روبسان » عادات التكيف مع الحياة ويكد بها الفكر في مجهوده المؤدي الى الظفر على الاشياء والاستيلاء على الطبيعة . وهناك اكثر من فيلسوف واحد معاصر لايتردد أبداً في قوله إن النظريات الصحيحة في الظاهر هي النظريات الموافقة والخصبة في التطبيق العملي . ويجوز اعتبار النظرية البراغمتية التي شاع قبولها في نطاق الحياة كما شاع في النطاق العلمي كرد فعل لمبالغات النظرية الفكرية . ووجه الصواب فيها أن قضية النجاح لاتفارق قضية الصحة في كثير من الاحيان واقرب الامثلة نجاح العلم الحديث بتطبيقاته العملية الناتج عن زيادة صحته وابتعاده عن الخطأ : ولكنا يؤخذ عليها أن الافكار لا لأنها نجحت تعتبر صحيحة بل لانها صحيحة نجحت ودليل ذلك أن بعض النجاح قد ينتج عن باطل رغم اعتراف الفكر ببطلانه وضلاله .

بسكولوجية الاعتقاد والنتيجة ان كل واحدة من النظريات السابقة اتت بعامل من عوامل الاعتقاد النفسية . فالاعتقاد بمعناه الواسع هو حالة فكرية تتوج الحكم ويساهم في تكوينها الفكر والارادة والعاطفة . وكم من الاعتقادات تتراءى فكرية وإذا بالعواطف والمصالح تدفعها من حيث لا تظهر . وما ألصق الاغراض بالافكار وما أقل الحالات التي تبرز فيها اللاغرضية . وحسبنا برهاناً اختلاف المذاهب قديماً وحديثاً ودائماً .

منطق الاعتقاد على أنه ينبغي ان نفرق بين بسكولوجية الاعتقاد ومنطق الاعتقاد فالاولى تدرس الاعتقاد كما هو وعوامله كما هي اما الثاني فيدرس الاعتقاد كمثل أعلى وعوامله كما يجب أن تكون . واذا درسناها كما يجب ان تكون لابد من ادخال العامل الفكري المؤدي الى الموضوعية . ولا ننكر أن الفكر المحض التي محاولة عبثاء وان المنطق المجرد هو منطق عقيم . لذلك لابد أن يتأثر ويؤثر بالتجربة والاحتكاك بالواقع . قال بوترو « لقد نتج عن تقدم المنطق والعلوم الرياضية في اليونان عقل منطقي رياضي كما نتج عن تقدم العلوم الفيزيقية والتجريبية عقل تركيبي بنائي . وسوف ينتج

عن تقدم علوم الحياة والنفس والاجتماع والاخلاق والحضارات ، بلا شك عقل أعلى من العقل الفيزيقي وربما كان غداً هذا العقل الاكثر تشخيصاً والاغنى ثروة أقل ابتعاداً وافتراقاً عن مظاهر الشعور الاخرى من العقل المنطقي المحض او العقل الفيزيقي الرياضي » .

. . .

١٠٩ — هل اعتقادنا يمليه الفكر أم القلب (بوردو ١٩٣٦، مونبلية ١٩٣٠)

. . .

١١٠ — ميز خصائص الاحوال النفسية الآتية: الاعتقاد. الشك . اليقين (باريز ١٩٣٤) .

110 - Caractériser les états psychologiques suivants . croire , douter , être certain « Paris, 1943 » .

شرح

الاوضاع الذهنية — يقف الفكر أمام الحقائق في اوضاع مختلفة . فتارة يقبل المعطيات الحسية والذهنية رأساً وبكل بساطة . وتارة يشعر بحاجة إلى برهان وتارة يعتقد بالحقائق بعد سلسلة من التجارب ينتهي منها إلى اليقين . وعدد هذه الاوضاع كثير يقرب بعضها من بعض ويختلف أحدها عن الآخر اختلافا قليلا أو كثيراً . أما الرئيسي منها فثلاثة : الاعتقاد . الشك ، اليقين .

ولكل نوع درجات . مثلا قد يكون الاعتقاد سطحياً آنياً ، وقد يكون عميقاً تأملياً وقد يلتقي مع اليقين . كما انه قد ينزع الى الشك رغم ميله إلى اليقين. فمن المفيد أن ندرس خصائص كل نوع ومظاهره والاهتمام به لماله من علاقة في نمو التفكير ورقيه.

الاعتقاد — الاعتقاد في مظهره الراقي . هو نتيجة الشك وثمرة الفكر الانتقادي أما في مظهره الابتدائي وهو الشائع فهو البعيد عن الشك . ففي كل يوم يقبل الانسان آراء عديدة في مختلف نواحي الحياة ويقبلها كصحيحة إما لانها أتت عن استاذه أو عن كتابه أو عن جريدة قرأها أو عن مجهول . وكثيراً ما يعتقد بصحة المظاهر التي تتراءى له ويتخذ عنها رأيا معيناً بدون تحقيق أو بتأثير التقاليد أو بتأثير التكيف أو بعامل الحاجة .

الشك — والشك هو حالة تعليق الحكم على وجود البرهان . وهناك شك توسل

يريد الشك حباً بالراحة وعدم البحث. كما أن هناك شكاً ريبياً يريد الشك لا حباً بالراحة بل زهداً بالعقل البشري واعترافاً بعجزه عن معرفة الحقائق (ويسمى باللاأدرية) أما الشك الصحيح العلمي فهو الشك الموقت الذي به ومنه ينتقل الفكر إلى مرحلة اليقين . ويسميه (شرتيه) « سلاح الفكر الانتقادي » . والحق أن الشك لم يجز حباً بالشك ولا حباً بالكسل أو عجزاً . إنما جاز اجتنابا للاعتقاد الساذج . لان الاعتقاد الصحيح مبني على المعرفة . والمعرفة الصحيحة هي المعرفة المحتاطة . أما اللا أدرية ففلسفة عقيمة .

ولا بد من الشك في كل اعتقاد رزين سواء كان علمياً أو أخلاقيا أو متيافيزيقيا أو إيماناً . وهو يفترض وجود مسائل للحل في سبيل الاعتقاد . واذا أخر الفكر من جراء تردده فذلك انما كان بتحضير البرهان أو انما كان بضبط الحل وتدقيقه . وهو على كل حال لا يشل الفكر ولو لم يكف البرهان إذ لا بد أن ينتهي باعتقاد ما .

اليقين وفي النطاق العلمي خصوصا يتحرر الفكر من الشك ليخرج إلى اليقين عن طريق البرهان . واليقين هذا يختلف عن الاعتقاد الساذج بالاوصاف الآتية : لايستند إلى تفكير كيفما اتفق بل الى سلسلة من البراهين مجتنباً عوامل الشخصانية ليكون موضوعياً ومعتصباً بحدود تجريبية . مع ذلك يجوز الاعتقاد بالحس إيماناً أو اعتقاداً متافيزيقياً أو اخلاقياً . مما يذكرنا بقول باسكال « دواعي القلب » وآراء روسو وتمييزات جمس والاعتقاد بالمبادىء الاخلاقية .

والخلاصة هذه أهم الاوضاع الرئيسية التي يقفها الفكر إزاء الواقع من جهة وإزاء المثل العليا من جهة أخرى .

١٢ — المحاكمة

١١١ — هل المحاكمة شكل من اشكال تداعي الافكار (باريز) .

111 - Le raisonnement est-il une forme de l'association des idées ? (Paris) .

شرح

نظرية التداعيين — جعلت المدرسة الانكليزية من تداعي الافكار قانوناً عاما للحياة النفسية . والاحساس عندها هو الحادثة البسيطة التي لا يتاح إرجاعها إلى أبسط منها فمن الاحساسات إذن والصور تتألف الحوادث النفسية المعقدة وبفضل التداعي . قال ستوارت مل : « قانون التداعي في علم النفس اشبه بقانون الجاذبية في علم الفلك » .

والمحاكمة بحكم هذه النظرية تداعي افكار سواء كانت استقراء أو استنتاجاً . لان كل نوع منها يرجع في النتيجة الى مسير من الجزئي الى الجزئي ذلك السير الذي هو التداعي .

خطأ التداعيين — لايسير الاستنتاج بدون مبدأ الهوية ولا الاستقراء بدون مبدأ السببية فالسير من جزئي الى جزئي يفترض وجود الكلي . نعم إن التجربيين يفسرون هذه المبادئ بالتجربة التي هي جزئية غير أن هيوم أحدهم يصرح بان هذا التفسير يؤدي الى الريبية العلمية . أضف الى ذلك ان مبدأ الهوية خصوصاً وهو القانون الفكري الاعلى لا يتهيأ عن طريق التجربة المعروفة بالتغير المستمر . واذا ما حذفنا فكرة المبادئ نكون قد حذفنا التفكير كله ويبقى الشعور شعوراً مبهما شبيها بالاحساس الحيواني . فالمحاكمة هي دائماً تسير من الجزئي الي الكلي أو من الكلي الى الجزئي ، ولا علم الا بالكليات .

قال ستوارت مل : إذا اقتربت إصبع الطفل من النار واحترقت ، يحصل لدى الطفل فكرة اجتناب النار ـ مع أن الطفل لم يفكر بالمبدأ العام القائل إن النار محرقه .

مناقشة : نحن أمام أمرين لا ثالث لهما . إما أن يكون قد حصل للطفل تسلسل صور كما يحدث في الكلب اقتران العصا بألم الضرب ، فيكون حينئذ في حيز الاحساس . وإما أن يؤلف المحاكمة التالية بما فيها من استقراء واستنتاج : ١ً) استقراء يعترف بأن كل نار محرقه كهذه النار . ٢ً) استنتاج يطبق صفة الاحراق على كل نار مقبلة ، وبهذا المعنى يخرج من حدود الجزئي .

العلاقة بين التداعي والمحاكمة لا تنكر أن التداعي يقلد المحاكمة وأن كل محاكمة تفرض وجود تداعي ولكن ذلك لا يعني ارجاع المحاكمة والتداعي احدهما الى الآخر . فالتداعي ميل شخصاني يورد الافكار بدون ضابط منطقي بينما المحاكمة موضوعية تضطر بفاعليتها الى انتخاب الافكار المناسبة للمحاكمة . التداعي أحلام والمحاكمة تفكير مقيد .

لقد قال ستوارت مل إن الطفل لا يفكر بمبدأ عام . صحيح ظاهراً . أما اذا تعمقنا في التأمل نجد المبادئ تعمل عملا خفياً . وقد لاحظ جميع علماء النفس أن الاطفال يعممون باكراً ويحبون الاطلاع على الاسباب كما يظهر من الاسئلة التي يوجهونها الى من حولهم فلا معنى للسؤال إذا لم يكن هناك مبدأ السببية يعمل بخفاء . كما أن مبدأ الهوية يظهر في ادراك الطفل لتناقض الذي كثيراً مايضحكه .

خلاصة والخلاصة ليست المحاكمة شكلا من اشكال التداعي ولا نوعا من انواع العادة الذهنية . فهي تمتاز بفاعليتها المميزة التي تراعي التناسب بين الفكر والواقع ، وهي تتوصل إلى نتائجها مستقلة عن الشخص المفكر بدليل كونها موحدة لدى جميع المفكرين في حال سلامتها من الخطأ . بينما تداعي الافكار هو حالة منوطة بالفرد لذي تحدث فيه ومختلفة باختلاف الاشخاص ، التداعي فردي والمحاكمة اجتماعية . وقد لاحظ (سبير) أن الاعتقاد الموضوعي يستند الى أسس لا يستند إليها الاعتقاد الشخصاني » . فانا اذا احاكم انا احكم بوجود علاقة موجودة لزاماً بين الاشياء الواقعة خارجة عني خلافا لتداعي الذي يربط الاشياء بعلاقات عرضية وليدة الصدف .

• • •

١١٢ — ماهي المحاكمة ؟ هل يجوز ارجاع انواعها الى نوع واحد ؟ (باريز ١٩٢٥) .

١١٣ — هل تكون المحاكمة واحدة في حالتي انفراد الشخص واجتماعه مع المناقشين (بزنسون ١٩٣٢) .

. . .

١١٤ ـ فسر وناقش تعريف (وندت) الفكر هو شيء يحاكم . « باريز »

114 - Commenter et discuter cette définition de Wundt: « L'esprit est une chose qui raisonne » (Paris).

متن

١ — الفكر بتعريف (وندت) هو شيء يحاكم . فالمحاكمة كما هو معلوم هي إسناد حقيقة إلى اخرى في سبيل تحقيق صواب او استخراج مجهول . فهي على كل حال ادراك غير مباشر لعلاقة من العلاقات .

٢ — هل يجوز توحيد الفكر والمحاكمة في هوية واحدة ؟ لايجوز ذلك بنظرنا . لان في الفكر أشياء غير المحاكمة . أضف الى ذلك أنه يجوزارجاع المحاكمة نفسها الى الحكم . فكثير من علماء النفس يرون في المحاكمة سلسلة أحكام مترابطة بحيث يجوز القول ان النفس شيء يحكم . فالحكم اساسي قبل المحاكمة .

٣ — ولو فرضنا ان المحاكمة لا ترجع الى شيء اساسي اكثر منها فتبقى مسألة عدم كفاية المحاكمة . ففي الفكر تداعي افكار وفيه تجريدوتعميم وفيه تخيل مبدع . فاذا كانت الفاعلية مقيدة في المحاكمة فكثيراً ماهي عفوية في تداعي الافكار . إسأل الشاعر هل يستوحي من المحاكمة ؟ بل اسأل العالم هل يتقيد بالمحاكمة أم يلجأ الى الحدس في اكتشاف الفرضية ؟

٤ — فتعريف « وندت » هو تعريف ضيق اذن . ولا يتاح له إرجاع الفكر الى مجرد عملية واحدة . فالفكر هو حاجة الفهم والوعي وهو مبدأ فاعلية . لذلك سماه فلاسفة القرن ١٧ بالعقل وميزوه عن المحاكمة . وفي اشعار موليير التالية تفريق بين النوعين بقي مشهوراً .

. . .

١١٥ — فسر أشعار موليير هذه :
المحاكمة ما يخدم المصلحة
المحاكمة ما يطرد العقل .

115-Commenter ces vers de Moliére:
Raisonner est l'emploi de toute ma maison,
Et le raisonnement en bannit la raison.

متن

١ — يميز موليير بين المحاكمة والعقل .

فالعقل يدرك العلاقات بطريقين ١ً) بالحدس . ٢ً) بالاستدراج أي بالمحاكمة .

٢ — المحاكمة تقع في الاخطاء من جراء تعقدها وتدخل الحدود الوسطى . وفي تدخل الحدود الوسطى فرصة مناسبة لعرقلة سير العقل . وهو ما نراه في النتائج الخاطئة اعتباراً من مبادىء صحيحة وفي النتائج الصائبة اعتباراً من مبادىء خاطئة . وبهذا المعنى أشير الى طرد المحاكمة للعقل .

٣ — أمثلة موليير : انهماك فلامينت وابنتها بالعلم الذي رغم مبادئه الصحيحة حرف الاولى عن واجباتها كأم والثانية عن الحب والزواج . فبمثل تلك المحاكمات يخرج الفكر عن الحس السليم ويشذ عن الطبيعة والحقيقة .

١٣ — العقل

١١٦ — ماذا يفهم من كلمة عقل ؟ ابحث عن الوحدة فى مختلف التعاريف المعطاة لهذا اللفظ . (باريز ١٩٢٥) .

116 - Qu'entend-on par raison ? Cherchez ce qui peut faire l'unité des différents sens qui sont donnés généralement à ce mot ? (Paris, 1925).

متن

١ — لكلمة عقل معاني عديدة أشهرها :

١ً) المعنى الواسع وهو الحس السليم . فالحس السليم هو المقدرة على تمييز الصواب عن الخطأ . وهو كما قال ديكارت « الشيء الموزع بين الناس أحسن توزيع ». والحق أن كل انسان بل كل طفل بلغ درجة من التفكير ، يتاح له مثل هـذا التمييز . ولولاه كما قال غوبلو ، « لما استطاع الناس ادراك الحقائق وبلوغ المعرفة والعلم » .

٢ً) المعنى المحدود وهو مجموع المبادئ المديرة للمعرفة . مبدأ الهوية ، مبدأ السببية ، مبدأ الغائية .

٣ً) المعنى الثالث وهو الذي اتخذه كنت . فكلمة عقل عنده تدل تارة على العقل النظري الذي يختص بتمييز الصواب والحقائق وتارة على العقل العملي الذي يختص بتمييز الخير والواجبات . وفى كلا الحالين هـو عقل سابق للتجربة ويستعين بالمفاهيم والمبادئ .

٢ — وتشترك المعاني السابقة كلها بوحدة هي فاعلية الفكر التي تتخذ من المبادئ المديرة للمعرفة أسساً وتبني عليها النتائج وربط العلاقات .

. . .

١١٧ — هل الكلمات الآتية مترادفة : عقل ، فكر ، حس سليم ؟ إذا لم تكن كذلك فما هو معنى كل منها وبم يفترق أحدها عن سواه . (باريز ١٩٣١) .

. . .

١١٨ — هل محق ديكارت في قوله إن الحس السليم هو الشيء الموزع بين الناس أحسن توزيع . (كلرمون) .

118 - Descartes a-t-i-l eu raison de dire que le bon sens est la chose du monde la mieux partagée ? (Clermont) .

متن

معنيان للحس السليم .

١ — يقال فلان ذو حس سليم إذا كان مستقيم الحكم دقيق الاحكام متزناً ذكياً . وليس هذا المعنى هو الذي قصده ديكارت .

٢ — لقد أراد ديكارت بقوله الحس السليم « ملكة التميز » بين الخطأ والصواب أي العقل . فالعقل هو ملكة مشتركة موجودة لدى كل انسان على اعتبار أن الانسان حيوان عاقل .

٣ — وبهذا المعنى صرح ديكارت بأن الناس كلهم يمتاز بصفة العقل وكلهم متساوون في هذا الامتياز .

٤ — ولكنما الفرق بينهم هو في استخدام الطريقة . فهم في هذه الناحية غير متساوين . قال ديكارت « ليست الميزة كلها أن يكون لدينا فكر جيد بل الميزة الهامة أن نطبقه بطريقة جيدة » .

٥ — ويؤخذ على ديكارت مبالغته في قيمة الطريقة . قال كلود برنار إنها غير كافية للابداع والاكتشاف . فينبغي أن يسبقها وجود عبقرية اختراعية . والعبقرية هي الميزة الفردية التي يفترق بها شخص عن شخص .

. . . .

١١٩ — باي معنى يجوز القول إن العقل واحد لدى جميع الناس رغم ما نلاحظه في اختلاف تفكير كل منهم . (كان ١٩٣٤) .

١٢٠ — ماهي مبادئ العقل ؟ هل هي فطرية ثابتة أم مكتسبة متطورة ؟

١٢١ — هل يجوز تفسير مبادئ العقل بتداعي الافكار (الاسكندرية ١٩٣٣)

١٢٢ — كيف جاز القول إن « العقل هو وليد المدينة cite » وانه من صنع المجتمع ؟ (برنسون ١٩٣١) .

١٢٣ — لقد أشير الى وجود ذهنية ما قبل المنطق . وقيل على العكس بوجود خصائص موجودة دائماً في البشر على اختلافهم . الخص الرأيين وانقدهما (رنسون ١٩٣١)

١٢٤ ـ فكرة الفاعلية الذهنية . بأي مقياس تفرض نفسها لدراسة علم النفس ؟ كيف ينبغي فهمها ؟ « مونبلية » .

124 - La notion d'activité mentale. Dans quelle mesure s'impose-t-elle à la psychologie ? Comment faut-il la concevoir ? « Montpelier ».

متن

١ ـ ليست كل فاعلية حركة . فهناك فاعلية ذهنية أو فكرية أو روحية . وتظهر كثيراً او قليلا في الحوادث النفسية .

٢ ـ ففي الحاسية ينجم كل من اللذة والالم والهيجان عن وجود ميول في الاصل ، إذا تحققت حدثت اللذة واذا كبتت حدث الالم . وقد قال ارسطو تنتج اللذة عن ممارسة الفاعلية عملها بنظام .

٣ ـ جميع الحوادث الفكرية مظاهر للفاعلية الذهنية : الانتباه ، الحكم ، المحاكمة ، التخيل المبدع .

٤ ـ وفي الغريزة والارادة والعادة تلعب الفاعلية دورها وتسبب الحركة .

٥ ـ تفهم الفاعلية الذهنيه كأنها مجهود يبذله الكائن في سبيل البقاء والحياة والشعور والتفكير . والفاعلية والقابلية هي مونادلينيز المتمتعة بالادراك والقابلية .

١٢٥ ـ يقول التجريبيون جملتهم المدرسية : « لاشيء في الفكر إلاويوجد قبلا في الحس . فيقول ليبنتز يحسن أن نضيف ببساطة قولنا « الاالفكرنفسه » مامعنى هذه الاضافة وما مداها .
(باريز ١٩٣٠) .

125 - A la formule classique de l'empirisme : [il n'y a rien dans l'intelli-gence qui n,ait été d'abord dans les sens]. Leibniz disait qu'il conve, nait d'ajouter simplement : « si ce n'est l'intelligence elle-même ».
Quel est le sens et la portée de cette addition? [Paris]

شرح

المبادئ العقلية — يرتكز تتابع الافكار والمحاكمات على مبادئ يخضع إليها في ادراك التجارب وكشف الحقائق . هذه المبادئ هي مبدأ الهوية ومبدأ السببية واحياناً مبدأ الغائية . وقد سميت بالمبادئ المديرة للمعرفة وسميت بالمبادئ العامة الضرورية .

اصل المبادئ — هل المبادئ فطرية سابقة للتجربة ام هي من مكتسبات التجربة؟

هناك نظريتان متخالفتان : النظرية العقلية والنظرية التجريبية . وقد حاول ربطها ليبنتز بقوله . « الا الفكر نفسه » . فما معنى هذه الاضافة وما مداها ؟

التجريبيون وجملتهم يريد التجريبيون أن يبينوا كيف تتكون المبادئ . يقول لوك إن افكارنا تأتي من الحواس وتزداد بالتجربة معطياتنا الابتدائية فتنضم إلى ماسبقها من المعطيات . فلا شيء إذن يوجد في الفكر ما لم يوجد قبلا في التجربة . ويؤخذ على لوك أنه يرى في التجربة المواد الاولية للمعرفة ولا يبحث عن التأمل الذي يفي هذه المواد الاولية ، أما هيوم فيلاحظ الانسجام بين الطبيعة العاملة والفكر الذي يقبل كل شكل يوحيه اليه تسلسل الاحساسات فيقول ان الاشياء تتراكم في انفسنا وقد تختلف تجربتنا عن الاحساس نوعا ما ، من حيث انها تؤلفه وتحيط الاشياء بفكرة السببية الضرورية . وينتهي بنا الامر الى تخيل طبيعة حسنة الصنع مما يجعل المعرفة مشروعة والعلم والتنبؤ العلمي . أما ستوارت مل فيقول ان التجربة تفرض علينا تتابع التجربة المرصوص وتداعي الاحساسات فنعتقد بان حوادث الطبيعة تسير هكذا حتما وتسير تبعاً لنظام ثابت ، وهذا هو مبدأ السببية . وتشترك الآراء السابقة كلها بانكار الفطرية واعترافها بان الفكر يولد صفحة بيضاء تمتلئ بخطوط الحواس ومعطيات التجربة .

تصحيح ليبنتز يأتي ليبنتز فيقول ان التجربة ليس من شأنها كشف العلاقات إذ لا معنى للعلاقة إذا جردنا الفكر من العمل ، وان عملية التركيب الفكرية هي مدينة الى وجود المبادئ العامة الضرورية . فتبقى التجربة بنظر ليبنتز غير كافية .

خلاصة وبنظره يمتاز العقل بفاعلية عن طريقها يجوز تأسيس العلم والميتافيزيقا وهذه الفاعلية مستقلة عن التجربة . وقد سبق ديكارت ليبنتز في لفت النظر الى فطرية الفاعلية الفكرية حين لاحظ ان التفكير بقوته يثبت فكرة الكمال إثباتاً تعجز عن اعطائه التجربة .

انتهى الكتاب الثاني